

سُورَةُ الزُّمَرِ

حين يتجرّد القلبُ لله،
وتسير الخليقةُ إلى مصيرها

تأليف: رَدّاد السَّلَامِي

سُورَةُ الزُّمَرِ

حين يتجرّد القلبُ لله، وتسير الخليقةُ إلى مصيرها

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تأتي سورة الزمر كأنها رحلة كبرى في مصير القلب والإنسان؛ تبدأ من السماء حيث تنزل الكتاب من الله العزيز الحكيم، ثم تنفذ إلى أعماق النفس لتطهر العبادة من شوائب الرياء والتعلق بغير الله، وتعيد القلب من تفرقه بين المخاوف والأطماع إلى سكينة التوحيد الخالص.

وفي مسارها تتجاوز مشاهد الكون ومشاهد القيامة، وتتقابل قسوة القلوب مع اقشعرارها للقرآن، وحسرة المفرطين مع رجاء التائبين. وفي قلب السورة ينطلق النداء الذي يعيد الحياة إلى أرواح أثقلها الذنب: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾؛ لنعلم أن باب الله أوسع من خطايانا، وأن التوبة تستطيع أن تغير زمرة الإنسان ما دام العمر باقياً.

ثم تنتهي الرحلة بالنفخ في الصور، وإشراق أرض المحشر بنور ربها، ووضع الكتاب، وسوق الخلائق زمراً إلى مصيرهم الأخير. هناك يظهر أن الزمر لا تتشكل عند أبواب الجنة والنار، بل تصنعها في الدنيا نيات القلوب واختيارات الأعمال. فسورة الزمر دعوة إلى أن يتجرد القلب لله الآن، قبل أن يمضي مع الزمرة التي اختار طريقها، ثم لا يستطيع عنها رجوعاً.

من أين ينزل الحق، ولمن يخلص القلب؟

الآيات: (١-٧)

ادخل سورة الزمر بقلب خفيف من ضجيج الدنيا؛ فإنك لا تدخل فيها إلى معانٍ تُقرأ فحسب، بل إلى محكمة كبرى تُعرض فيها العقائد والقلوب والمصائر. كلُّ شيءٍ في هذه السورة يمضي نحو الفرز: إيمان وكفر، إخلاص وشرك، نور وظلمة، رجاء وقنوط، زمرة إلى الجنة، وزمرة إلى السعير. إنها سورة تنزع عن الإنسان أعذاره واحداً بعد آخر، ثم تضعه عارياً أمام الحقيقة: ما الذي تعبده في باطنك؟ لمن تخضع؟ ممن ترجو؟ من تخشى؟ وإلى أين تمضي؟

وسُميت الزمر؛ لأن البشر الذين اختلطوا في طرق الأرض، وتشابهت وجوههم في الأسواق، وتجاورت أجسادهم في المجالس، سيتمايزون يوم القيامة بحسب ما حملته قلوبهم. هناك لن يكون الناس حشداً مجهولاً، بل جماعاتٍ كشفتها حقائقها: زمرةٌ ساقها الكفر، وزمرةٌ قادها الإيمان. وكأن السورة تقول منذ عنوانها: انتبه إلى الزمرة التي تصنع انتماءك إليها الآن؛ فإن طريق الآخرة يبدأ من سريرة القلب في الدنيا. تبدأ السورة من العلو:

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾

لم تقل الآية: هذا كتاب، بل قالت: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾؛ لتضعك منذ الكلمة الأولى أمام حركةٍ من السماء إلى الأرض، من العلو الإلهي إلى الضعف الإنساني، من العلم المحيط إلى القلب المحدود. إن القرآن لم يصعد من مخيلة بشر، ولم تُنشئه عبقرية شاعر، ولم تجمع حكمة فيلسوف؛ إنه تنزيل. وهذه الكلمة وحدها تهدم كل محاولة لإخضاع الوحي إلى أهواء الإنسان؛ فما كان نازلاً من عند الله لا يُحَاكَمُ إلى ما يتصاعد من رغبات الأرض.

والمنزَّل هو ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

عزيزٌ فلا يُغَالَبُ أمره، ولا يُقهر شرعه، ولا يستطيع الباطل مهما علا صوته أن يجرح حقيقة كلماته. وحكيمٌ فلا يضع آيةً في غير موضعها، ولا يأمر بشيء عبثاً، ولا يقدر للإنسان طريقاً يخلو من الحكمة، وإن خفيت عليه في أول المسير.

فإذا اجتمعت العزة والحكمة، علم المؤمن أن ما ينزل من الله حق لا يدفع، وخير لا يعيب، وهدى لا يضل. قد تعترض عليه أهواء الناس، وقد تحاصره قوى الأرض، ولكنها إنما تصطدم بعزة الله، لا بحروف مجردة.

إن افتتاح السورة باسمي العزيز الحكيم يسكب في القلب مهابةً وطمأنينة: مهابةً لأن المتكلم هو الذي لا يُغلب، وطمأنينةً لأن تديره لا يخلو من الحكمة.

ثم يأتي البيان الذي تقوم عليه السورة كلها:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۚ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ﴾

نزل الكتاب بالحق، أي لم ينزل ليمتع الذهن ببلاغته وحدها، ولا ليكون زينةً في الرفوف، ولا صوتاً عابراً في الجنائز والمناسبات. نزل حاملاً الحقيقة، ليعيد ترتيب القلب والحياة على ميزانها. ولأن الكتاب نزل بالحق، جاءت الثمرة مباشرة:

﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ ۚ﴾

كأن كل معرفة بالوحي لا تنتهي إلى العبودية معرفةً لم تبلغ غايتها. فالقرآن لا يريد عقلاً معجباً بجماله فحسب، بل يريد جهةً تسجد، وقبلًا يخشع، وإرادةً تنقاد، وحياةً تتحول إلى جواب عملي عن خطاب السماء.

لكن العبادة ليست مجرد هيئة ظاهرة، فقد يشترك الجسد في الطاعة، بينما تتوزع نيات القلب بين الله والناس. ولهذا جاءت الكلمة التي هي سرُّ السورة:

﴿مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۚ﴾

الإخلاص هو أن يعود القلب من تشتهه إلى الواحد؛ فلا يعبد الله ليرى، ولا يطيعه ليدرك، ولا يترك المعصية حفاظاً على صورته أمام الخلق، ولا يجعل رضا الناس ميزاناً خفياً لأعماله. الإخلاص ليس أن تفعل العمل الصالح فقط، بل أن تنقذه من كل يد تريد أن تشارك الله فيه. هو تصفية العبادة من ملاحظة النفس، ومن انتظار الثناء، ومن التعلق بمكانة في قلوب الآخرين. وما أشد خفاء الشرك حين لا يكون صنماً من حجر، بل شهوةً إلى المديح، أو خوفاً من بشر، أو تعظيماً للذات، أو تعلقاً بسببٍ حتى ينسى مسبب الأسباب!

قد يهدم الإنسان أصنام قومه بلسانه، ثم يُبقي في داخله صنماً اسمه: أنا. وقد يدعو إلى الله، لكنه يضيق إذا لم يُنسب الخير إليه. وقد يعمل للدين، لكنه يحزن لخفاء اسمه أكثر مما يحزن لتراجع الحق. وهنا تأتي سورة الزمر كالمبضع النوراني، لا لتقتل العمل، بل لتستأصل منه حظوظ النفس.

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ﴾

تبدأ الجملة بأداة تنبيه: ﴿أَلَا﴾، كأن القلب غافل يحتاج إلى هزة. انتبه: إن الله غني عن العبادة المخلوطة. لا يقبل من الدين إلا ما كان له، ولا يليق بجلاله أن يُجعل واحداً من مقاصد متعددة. الدين الخالص لله؛ لأن الخلق كلهم عباده، والنعمة كلها منه، والأمر كله إليه، والمصير كله بين يديه. فكيف يُعطى المخلوق من عبودية القلب ما لا يستحقه إلا الخالق؟

ثم تكشف الآيات منطق الشرك القديم، وهو منطق يتجدد في كل عصر وإن تغيرت أسمائه:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾

لم يكن المشركون ينكرون الله دائماً، بل كانوا يضعون بين قلوبهم وبينه وسائط يمنحونها من التعظيم والتأله والاستغاثة ما لا يكون إلا له، ثم يكسون انحرافهم بثوب التقرب.

وهنا تظهر خطورة الباطل حين يترنّ بلغة دينية. إن أخطر الضلال ليس ذلك الذي يقول: ابتعدوا عن الله؛ بل الذي يقول: سأصنع لكم طريقاً إلى الله، ثم يقيم في الطريق ما يحجبكم عنه.

قالوا: ﴿لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، فجعلوا الشرك جسراً، والتعلق بغير الله قربة، والانحراف وسيلة للوصول. ولكن الله لا يُتقرب إليه بما يناقض توحيده، ولا تُطلب مرضاته بانتهاك حقه الخالص. إن المسافة بين الله وعبده لا تحتاج إلى صنم يردمها؛ لأن الله قريب، يسمع الدعاء، ويرى الانكسار، ويعلم السر قبل أن ينطقه اللسان. وما يوهّم الإنسان بأن رحمة الله بعيدة حتى يحتاج إلى من يحمل أئنه إليها، إنما يسيء الظن بقرب الله وسعة سمعه وكمال رحمته.

ولهذا ردّ الله القضية إلى قضائه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾

إن الله لم يسمّ حجتهم اجتهداً بريئاً، بل كشف ما تحتها من الكذب والكفر؛ لأن الباطل حين ينسب نفسه إلى الله يصبح كذباً عليه، وحين يصرف حقه إلى غيره يصبح كفراً بنعمته ووحدانيته. والتعبير بـ ﴿كَذَّابٌ كَفَّارٌ﴾ يدل على رسوخ الصفتين وتكررها: كذبٌ يختلق المبررات، وكفرٌ يستر الحقيقة بعد ظهورها. فالضلال لا يعيش بالحجة وحدها، بل يحتاج دائماً إلى أكاذيب متتابعة تحميه من نور الفطرة.

ثم تهدم السورة توهم الولد عن الله:

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

﴿سُبْحَانَهُ﴾: كلمة تنزيه تقطع أوهام التشبيه من جذورها. فالله ليس كمثل شيء، ولا تلحقه خصائص المخلوقين، ولا يحتاج إلى ولد يعينه، أو يرثه، أو يمتد به وجوده. إنما يطلب الولد من يعتريه النقص، ويخشى الفناء، ويحتاج إلى من يكون من جنسه؛ والله منزّه عن ذلك كله.

ثم يأتي الاسمان اللذان يسحقان أصل الوهم:
﴿الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

هو الواحد الذي لا شريك له في ذاته وأسمائه وصفاته وعبادته. وهو القهار الذي خضعت له الموجودات، وانكسرت لسلطانه القوى، وجرت المقادير بأمره. وكأن اقتران الاسمين يقول: هو واحدٌ فلا يحتاج إلى شريك، قهارٌ فلا يحتاج إلى معين. كلُّ ما سواه مخلوق، وكل مخلوق واقعٌ تحت قهره، فكيف يُرفع المقهور إلى مقام الإله؟ وفي كلمة القهار ظلٌّ يمر على السورة كلها؛ فالذين يتكبرون اليوم سيقفون غداً في أرضٍ لا يملكون فيها حركةً إلا بإذن الله. والذين صنعوا لأنفسهم سلطاناً سيكتشفون أن سلطانهم كان لحظةً مستعارة. والذين ازدحموا على ملك الأرض سيخرجون منها بلا شيء، ثم يقفون بين يدي الواحد القهار.

بعد تقرير التوحيد، تفتح السورة أمام العين كتاب الكون:

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُوِّرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُوِّرُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾

مرةً أخرى يعود الحق. فالكتاب نزل بالحق، والكون خُلق بالحق. وبين كتابٍ مقروء وكونٍ منظور تقوم وحدة المصدر: الذي أنزل الآيات هو الذي صنع الآفاق؛ ولذلك لا يتناقض وحيه مع خلقه، ولا أمره مع حكمته.

﴿يَكُوِّرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُوِّرُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ﴾.

صورة مهيبة رقيقة: الليل يلتف على النهار، والنهار يلتف على الليل، في حركة لا تتوقف. لا يقتحم أحدهما الآخر فوضى، ولا يسبقه، ولا يضيع موعده. يدٌ من التدبير لا تراها العيون، لكنها ترى أثرها في هذا التعاقب المدهش.

كل مساءٍ درسٌ في أن الأشياء مهما أشرقت ستغيب، وكل فجرٍ بشارةٌ بأن الظلمة مهما اكتملت ستتكشف. والإنسان بين ليلٍ ونهارٍ يستهلك رصيده الخفي من العمر. يظن أن الأيام تتكرر، وما تكررت قط؛ لأن كل يوم يأخذ قطعةً منه ويمضي بها إلى الأجل.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

حتى الشمس، على ضخامتها ووجهها، ليست حرةً في الكون؛ إنها مسخرة. وحتى القمر الذي تتبعه الأبصار في سكون الليل عبدٌ جارٍ إلى موعده. فإذا كانت هذه الأجرام الهائلة لا تخرج عن أمر الله، فبأي وهم يظن الإنسان الصغير أنه يستطيع أن يخرج من ملكه؟

ولفظ ﴿يَجْرِي﴾ يمنح الكون كله شعور الحركة نحو نهاية. لا شيء ساكن في الحقيقة؛ الأفلاك تجري، الأعمار تجري، الأنفاس تجري، والتاريخ يجري، وكل شيء يقترب من أجله المسمى. ثم تُختم الآية بمفارقة جليلة:

﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾.

عزيزٌ يقدر أن يأخذ، وغفارٌ يفتح للراجع باب الرجوع. لا تغلبه معصية العاصي، ولا يعجزه أن يحوها إذا صدقت التوبة. وفي الجمع بين الاسمين تربية دقيقة للقلب: فلا يغترّ بالمغفرة حتى يأمن، ولا ييأس من العزة حتى يقنط.

إنه قادرٌ عليك، ومع ذلك يدعوك إليه. غنيٌّ عنك، ومع ذلك يفرح بتوبتك. لو شاء لأخذك عند أول ذنب، لكنه يغطي بكلمته، ويمد لك في العمر، ويرسل إليك الآية بعد الآية؛ لعل القلب الذي ابتعد يعود.

ثم تعيدك السورة من اتساع السماوات إلى سرِّ نفسك:

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَانزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنِي تُصِرُّونَ﴾

ما أعجب الانتقال: من تكوير الليل والنهار إلى تكوين الجنين في الرحم! من الشمس والقمر إلى قطرة صغيرة لا تكاد تُرى! ليدرك الإنسان أن القدرة التي تدبر الأفلاك هي نفسها التي رعته في ظلماته الأولى.

﴿خَلَقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾.

لم تكن شيئاً مكملاً دفعةً واحدة. تنقلت بك القدرة طوراً بعد طور، وصورةً بعد صورة، وأنت لا تعلم عن نفسك شيئاً، ولا تملك لنفسك نفعاً ولا دفعاً. كنت تُصنع في الخفاء، تحت رعايةٍ لم تطلبها؛ لأنك لم تكن تملك لساناً يسأل، ولا عقلاً يرجو.

﴿فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾.

في تلك الظلمات لم تكن وحيداً؛ كانت عناية الله تبغك حيث لا يبلغك أحد. لم تكن أملك ترى تفصيل خلقك، ولا كان الناس يعلمون ملاحظك، لكن الله كان ينقلك من طور إلى طور، ويبنى عظامك، ويكسوها، ويهيئ قلبك لأول خفقة، ورثتيك لأول صرخة.

فكيف ينسى الإنسان رباً عرفه قبل أن يعرف الإنسان نفسه؟ وكيف يتعلق قلبه بمن لم يشهد بدايته، وينصرف عمن أنشأه في الظلمات؟

ولهذا جاء التعريف الحاسم:

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

ذلكم الذي أنزل الكتاب، وخلق السماوات، وكوّر الليل، وسخر الشمس، وصوّركم في الأرحام: هو الله ربكم. ليست الربوبية فكرة مجردة، إنها إحاطة من النعمة والتقدير والرعاية. كل ذرة في وجودك تشهد أنك مملوكٌ له.

ثم يأتي السؤال الذي يحمل دهشة العتاب:

﴿فَأَنَّى تُصْرِفُونَ﴾.

إلى أين تُدفع قلوبكم بعد هذا البيان؟ وكيف تنصرفون عن الله، وآثار ربوبيته تحيط بكم من فوقكم ومن تحت أقدامكم وفي أعماق أجسادكم؟ إن الانصراف عن الله ليس نقص دليل؛ بل هو خلل في اتجاه القلب.

ثم تواجه السورة الإنسان بحقيقة مسؤوليته:

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

الله لا تزيده طاعتك ملكاً، ولا تنقصه معصيتك سلطاناً. إن كفرت، فلن تطفئ من نور الله شيئاً، ولكنك تطفئ المصباح في قلبك. وإن عصيت، فلن تهدم من ملكه شيئاً، ولكنك تهدم نفسك. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾.

ما أشد هذه الكلمة على غرور الإنسان! إن الله لا يحتاج إلى عبادتنا، ونحن الذين لا نستطيع أن نحيا لحظة بلا رحمته. نحن المحتاجون إلى الصلاة كي لا نتوحش أرواحنا، وإلى الذكر كي لا نتيه قلوبنا، وإلى التوبة كي لا تقتلنا أوزارنا.

ومع غناه عنا، ﴿لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾. لا يرضاه لهم رحمة بهم؛ لأن الكفر ظلمة وشقاء وانفصال عن مصدر الحياة. ثم يفتح الوجه الآخر: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾.

الشكر ليس كلمة تمر على اللسان، بل أن ترى النعمة طريقاً إلى المنعم. أن تتحول الصحة إلى طاعة، والعلم إلى هداية، والمال إلى إحسان، والقلم إلى نصره للحق. أما أن يستعمل عطاء الله في معصيته، فذلك أن تتقلب النعمة في يد الإنسان شهادة عليه.

ثم تقطع الآية علائق الاتكال الوهمي:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

ستأتي وحدك. لن يحمل عنك جمهورٌ أحبك، ولا جماعةٌ انتسبت إليها، ولا أسرةٌ افتخرت بها، ولا شخصيةٌ قلّدتها بلا بصيرة. في الآخرة تسقط الأسماء التي احتمينا بها، ويبقى العمل الذي صنعناه.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾.

ليست الرحلة إلى العدم، بل إلى الرب. ليست النهاية حفرةً مغلقة، بل وقوفٌ بين يدي من بدأ الخلق وعلم السر.

﴿فَيُنشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

سوف يُخبر الإنسان بنفسه؛ لأن الدنيا تُنسيه ما صنع، وتُساعد على تزيين أفعاله، لكنه هناك يرى العمل بحقيقته، منزوعاً من الأعداء.

ثم يأتي الختام الذي يفتح أبواب الصدر كلها أمام العلم الإلهي:

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

لم يقل: عليمٌ بأعمالكم فحسب، بل بما تسكنه الصدور: النية المحتبئة، والحسد المصمت، والرياء الذي يلبس ثوب العبادة، والانكسار الذي لم يره أحد، والدمعة التي كتمتها العين، والحب الذي لم يستطع اللسان وصفه.

وهنا يعود أول المحطة إلى آخرها: بدأت بالإخلاص، وانتهت بعلم الله بذات الصدور. فكأنها تقول: أخلص؛ لأن الذي تعبد لا ينظر إلى الصورة وحدها، بل يعلم منبع العمل قبل أن يجري على الجوارح.

إشراق المحطة

تضعنا هذه الآيات الأولى أمام ثلاثة كتب مفتوحة:

كتابٌ منزل: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾. وكونٌ مخلوق: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾. ونفسٌ مصورة في الخفاء: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾.

وكلها تنطق بحقيقة واحدة: لا إله إلا الله.

لكن التوحيد في سورة الزمر ليس معلومةً باردة، بل تحريراً كامل للقلب. أن يخرج من عبودية النظرات، ومن استجداء القبول، ومن الخوف المذل من الخلق، ومن تعليق المصير بالأسباب؛ ليقف بين يدي الله خالصاً، لا يريد بعمله سواه.

فاسأل قلبك عند بوابة السورة:

إذا غاب الناس، فهل تبقى طاعتي كما هي؟ إذا لم يُذكر اسمي، فهل يظل فرحي بالخير كاملاً؟ إذا
تعارض رضا الله مع رضا من أحب، فأأي الرضايين أختار؟ وهل أعبد الله لأنه الله، أم لما أرجوه
من عطاياه وحدها؟

إن أول الطريق إلى الزمرة الناجية أن يتعلم القلب في الدنيا كيف يكون لله وحده.

حين تسقط الأقنعة في الضُّرِّ، ويصعد القانتون في ظلال الليل

الآيات: (٢٠-٨)

بعد أن كشفت الآيات الأولى أصل الطريق: كتَّابُ منزل بالحق، ودينٌ لا يقبله الله إلا خالصاً، وربُّ خلق الإنسان في ظلمات الرحم وعلم خفايا صدره؛ تنتقل السورة إلى مشهد النفس حين تمسُّها الشدة.

فالإنسان قد يستطيع أن يخفي حقيقة قلبه في الرخاء، وأن يتجمل أمام نفسه والناس بما يشاء، لكن الألم يمزق الأقنعة. حين تضيق الأسباب، ويغيب المعين، ويقترب الخطر، يظهر المعبود الحقيقي الذي كان القلب يتجه إليه في أعماقه.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾
تقول الآية: ﴿مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ﴾.

مجرد مسٍّ من الضر يكفي ليوثق في الإنسان فقره القديم. فالإنسان، مهما ارتفعت منزلته، هسَّ أمام وخزة ألم، أو خبر مفاجئ، أو خوف يطرق صدره في الليل. قد يذني حول نفسه أسواراً من القوة، ثم تهدمها كلمة طبيب. وقد يظن أن بين يديه مفاتيح حياته، ثم يعجز أمام نبضة مضطربة، أو نفسٍ يضيق، أو محبوبٍ يخشى فقده.
عندها ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾.

والإنابة أعمق من مجرد الدعاء؛ إنها رجوع القلب بعد شروده، وانعطاف الروح بكليتها نحو الله. كأن الشدة تزيج عن الفطرة غبار الغفلة، فيتذكر الإنسان الجهة التي يعرفها في قرارة نفسه، وإن جردها في ساعة الأمن.

في لحظة الضر لا يحتاج القلب إلى دليل فلسفي معقد على وجود الله؛ لأن فقره نفسه يناديه. ينكسر تكبره، وتسقط لغته المتعالية، ويخرج الدعاء حاراً من موضعٍ أعمق من اللسان:
يا رب.

إنها الكلمة التي تختصر المسافة كلها. لا وسائط، ولا أنداد، ولا زخارف. قلبٌ خائف وربٌّ قريب.

لكن المأساة تبدأ بعد النجاة:

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نِسِي مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾.

لم تقل الآية: أعطاه نعمة، بل قالت: ﴿خَوَّلَهُ﴾؛ وفيها معنى التفضل والتملك والإععام الواسع. فالنعمة لم يصنعها الإنسان لنفسه، بل خوّلها من الله. كانت منحةً، لا استحقاقاً ذاتياً.

ومع ذلك نسي.

ما أفسى كلمة ﴿نَسِيَ﴾ هنا! نسي خوفه، ونسي ارتجاف قلبه، ونسي تلك الوعود التي قطعها في الظلام، ونسي الصوت الذي خرج من أعماقه وهو يقول: لئن أنجيتني لأكون من الشاكرين. كأن بعض القلوب لا تريد الله، بل تريد النجاة فقط. فإذا حصلت النجاة، استغنت في وهما عن المنجي.

وهذا من أخطر أمراض النفس: أن تجعل الدعاء جسراً تعبر عليه إلى النعمة، ثم تهدم الجسر بعد الوصول. أن تعرف الله في غرفة المرض، ثم تنساه في ساحة العافية. أن تكثر من السجود عند الخوف، ثم تستثقل ركعتين عند الأمن.

إن النعمة في هذا الموضع ليست نهاية الابتلاء؛ إنها وجهه الآخر. فالضر يختبر صدق الالتجاء، والنعمة تختبر وفاء القلب. وقد ينبج الإنسان في امتحان الألم، ثم يسقط في امتحان العافية؛ لأن الألم يوقظه قسراً، أما النعمة فتحتاج إلى قلب يحرس ذاكرته من الغفلة. ثم لا يقف الأمر عند النسيان:

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾.

نجا بفضل الله، ثم نسب النجاة إلى غيره. أمدّه الله، ثم علق قلبه بالسبب. خلق الله له القدرة، ثم عبد قدرته. وهبه العقل، ثم اتخذ عقله حكماً على وحيه. والند ليس دائماً تمثالاً يُخت؛ قد يكون هوى يُطاع، أو شخصاً يُخشى كما يُخشى الله، أو مالاً يعتقد صاحبه أن أمنه فيه، أو سلطةً يبيع من أجلها دينه، أو ذاتاً متضخمة ترى نفسها مصدر الفضل والنجاح.

كل ما يأخذ من القلب تعظيماً وتوكلًا وخضوعاً لا يكون إلا لله، فقد نازع التوحيد في موضعه. وهنا يأتي الحكم المزلزل:

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾

ليست كلمة ﴿تَمَتَّعْ﴾ إذناً بالرضا، بل تهديدٌ يقطر تحقيراً للدين: تمتع، ولكن تذكر أن المتاع قليل. كل لذة معصية قصيرة، وإن طال أثرها في الروح. وكل مجد بُني على الكفر زائل، وإن بدا لأهله راسخاً.

إن أشد ما يفضح متاع الدنيا أن يوضع إلى جوار الأبدية. سنواتٌ محدودة، ثم نار. لذةٌ عابرة، ثم حسرةٌ لا تنقطع. وما قيمة شيء يسرق من الإنسان خلوده؟
ثم تضع السورة إلى جوار هذا الإنسان المتقلب صورة إنسان آخر. وبالمقابلة يتضح الفرق، كأننا أمام ميزان له كفتان:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آَنَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

هناك إنسان لا يعرف الله إلا حين يمسه الضر، وهنا إنسان يعرف الله ﴿آَنَاءُ اللَّيْلِ﴾. ذاك رده الألم إلى ربه لحظة، وهذا اختار الرجوع إليه في سكون الليل، حين نامت العيون، وخفت الأصوات، ولم يبق بينه وبين الله متفرج ولا ثناء.
﴿قَانَتْ﴾.

القبول طول قيام مع خضوع وطاعة. ليس حركة سريعة يؤديها الجسد ثم ينصرف، بل مقام قلب طال وقوفه بين يدي مولاه؛ لأنه وجد في الوقوف حياة لا يجدها خارجة.
ثم ترسم الآية حالته:

﴿سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾.

بين خفض الجبهة ورفع الجسد تمضي ليلته. يقوم اعترافاً بعظمة الله، ويسجد اعترافاً بفقر نفسه. القيام هيبية، والسجود قرب. القيام شهوداً لجلال الرب، والسجود ذوباناً للعبد في مقام العبودية. وما أعجب أن يكون انخفاض الجبهة هو أعلى مواضع الروح! يضع الإنسان أشرف أعضائه على الأرض، فيرتفع عند الله. يسقط من عيني نفسه، فيقوم قلبه. ويتخلى عن كبرائه، فيجد عزته. ولم تقل الآية إنه يصلي في الليل فحسب، بل كشفت التيارين اللذين يتحركان في قلبه:
﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾.

خوفٌ ورجاء؛ وهما جناحا القلب إلى الله.

يحذر الآخرة؛ لأنه لا يغتر بعمله، ولا يرى سجداته ثمناً مضموناً للنجاة. ويرجو رحمة ربه؛ لأنه لا يعتمد على نفسه، ولا يقنط من تقصيره.

ولو استولى الخوف وحده لتحول الطريق إلى يأس، ولو استولى الرجاء بلا خوف لتحول إلى أمنٍ وغرور. أما المؤمن فيعبد الله بقلب يرتجف ويطمئن في آنٍ واحد: يرتجف من عدله، ويطمئن إلى رحمته؛ يخشى ذنبه، ويحسن الظن بربه.
وتأمل كيف أضاف الرحمة إلى الربوبية:

﴿رَحْمَةً رَّبِّهِ﴾.

فهو لا يرجو رحمة بعيدة مجهولة، بل رحمة ربه الذي خلقه ورباه وستره، وعرف ضعفه، وفتح له باب الوقوف في الليل. إن الذي أيقظ قلبك للدعاء قد أراد أن يسمعك، والذي أوقفك ببابه لم يرد أن يطردك.

ثم يأتي السؤال الذي لا يحتاج إلى جواب:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

ليس العلم في القرآن كثرة محفوظات، ولا تراكم معلومات في الذهن. العلم هنا هو ذلك النور الذي أخرج صاحبه من فراشه، وأوقفه بين يدي الله، وملأ قلبه بالآخرة والرجاء. فمن علم حقيقة، تغير.

من علم أن الله يراه، استحيا أن يعصيه. ومن علم أن الآخرة حق، لم يبعها بعاجل الشهوة. ومن علم سعة الرحمة، لم يستسلم للقنوط. ومن علم ضعف الدنيا، لم يجعلها أكبر همه.

أما المعرفة التي لا تثبت خشية ولا تصنع عبادة، فهي خبر مرّ بالعقل ولم يصل إلى القلب. ولهذا لم تقل الآية بعد الحديث عن القانت: هل يستوي العابد وغير العابد؟ بل قالت: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لتدل على أن العبادة الواعية ثمرة العلم الحقيقي، وأن الجهل ليس دائماً فقدان المعلومة، بل قد يكون فقدان أثرها.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

واللب هو العقل الخالص من قشور الهوى والتقليد. فما أكثر العقول التي تعمل في شؤون الدنيا، لكنها معطلة عن سؤال المصير! تحسن الحساب لكل شيء إلا عمرها، وتخطط لكل رحلة إلا الرحلة إلى الله.

ثم يجيء النداء إلى أهل الإيمان:

﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

يا له من تشريف: ﴿يَا عِبَادِ﴾.

ينسبهم الله إلى نفسه، وفي هذه الإضافة من الأنس ما يخفف مشقة التكليف. كأن المعنى: أتم

عبادي، وتحت رعايتي، فلا تخافوا ضياع الطريق ما دمتم لي.

لكن الإيمان الذي يسكن القلب لا بد أن يتحول إلى تقوى:

﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾.

اجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية. لا تعيشوا على حافة المعصية، ولا تختبروا قوة قلوبكم أمام الفتنة. التقوى ليست خوفاً يطارده الحياة، بل نورٌ يحرسها؛ بها يعرف الإنسان موضع قدمه، فلا يضعها في طريق يعلم أنه يقوده إلى الندم.

ثم يأتي الوعد:

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾.

الإحسان لا يضيع. قد ينساه الناس، وقد يمحذونه، وقد يُقابل بالظلم، لكنه محفوظ عند من لا تضيع عنده خافية.

ولعل الإنسان يحزن لأن خيره لم يُر، أو لأن صدقه لم يُكافأ، أو لأن تضحيته نُسبت إلى غيره؛ فتقول له الآية: لا تجعل ذاكرة البشر خزينة أجرِك. إن الذي أحصاه الله لا يضره أن ينساه العالم كله.

ثم تفتح الآية أفق النجاة:

﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾.

إذا ضاق مكانٌ عن إيمانك، فلا تظن أن الأرض انتهت. وإذا استحكمت بيئَةٌ تريد أن تسرق دينك، فلا تجعل الألفة قيداً، ولا الوطن الأرضي أكبر من وطن الروح. أرض الله واسعة؛ فلا تستسلم للباطل بحجة أنك لا تجد مكاناً للطاعة. والهجرة ليست حركة جسد فقط؛ فقد تكون هجرةً من صحبةٍ تفسد القلب، ومن عادةٍ تستنزف الإيمان، ومن بيئةٍ داخليةٍ صنعتها الشبهوات.

إن الله لا يريد منك أن تتخذ ضيق الواقع عذراً لضيق نفسك. إن ضاق موضع، اتسع التكليف بالبحث عن موضع آخر.

لكن مغادرة المألوف مؤلمة، والثبات على الحق ثقيل، ولذلك جاء الوعد الأعظم:

﴿إِنَّمَا يُؤْتِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

لم يقل: يُعطون، بل «يُؤْتِي»؛ أي يُستكمل لهم الجزء كاملاً لا يُنقص منه شيء. ثم تجاوز الوعد مقياس العد:

﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

لأن الصبر لا يعرف مقداره إلا الله. الناس يرون سكونك، ولا يرون العاصفة التي حبستها في صدرك. يرون ابتسامتك، ولا يعلمون كم مرةً رمت قلبك في الخفاء. يرون أنك لم تعترض، ولا يسمعون الحوار الطويل بينك وبين ألمك.

الصبر عبادة لا يحيط بوزنها مخلوق؛ فجاء جزاؤها بغير حساب. قد يكون لكل حسنة عدد، أما الصبر فبحر؛ لأن الصابر لا يقدم فعلاً واحداً، بل يقدم نفسه كل يوم. يصبر على الطاعة، وعن المعصية، وعلى البلاء، وعلى تأخر الفرج، وعلى غموض الحكمة، وعلى طريق لا يرى نهايته، لكنه يثق بمن يقوده.

ثم يعود الأمر بالإخلاص مؤكداً، كأن السورة لا تسمح للقلب أن يتعد طويلاً عن مركزها:

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾

النبي ﷺ، وهو سيد المخلصين، مأمورٌ بالإخلاص. وفي هذا تعليم للأمة أن أحداً لا يستغني عن مراقبة نبيه، وأن علو المنزلة لا يسقط التكليف، بل يزيد صاحبه عبوديةً وخضوعاً.

﴿أُمِرْتُ﴾.

فالرسول ﷺ لا يتحدث من ذاته، ولا يصنع لنفسه ديناً، بل يتلقى الأمر وينقاد. وعظمة القيادة النبوية أنها بدأت من كمال العبودية؛ فهو أول من يخضع لما يدعو الناس إليه، وأول من يحمل ثقل الطريق.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

ليس أولهم زمنياً بإطلاق، فقد سبقه الأنبياء، وإنما الأول في أمته، والسابق إلى امتثال ما أمر به. فالداعية الحق لا يقف خلف الكلمات يدفع الناس إلى الطريق، بل يمشي أمامهم، وتكون حياته أول تفسيرٍ لدعوته.

ثم تهبط على القلب مهابة اليوم العظيم:

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

إذا كان رسول الله ﷺ يؤمر أن يعلن خوفه من عذاب الله لو عصاه، فبأي شيء يأمن المقصرون؟ القرابة من الدين لا تغني عن طاعة الله، والانتساب إلى الصالحين لا يمنح حصانةً من الحساب، والكلمات الجميلة عن الإيمان لا تقوم مقام الاستقامة.

﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾.

يعلمنا النبي ﷺ أن نخاف الذنب، لا أن نكتفي بالخوف من نتائج الذنوبية. قد تمر المعصية بلا فضيحة، وقد ينجو صاحبها من عقوبة عاجلة، لكن السؤال: ماذا تفعل المعصية في صلته بربه؟ وما الذي ينتظره في اليوم العظيم؟

ووصف اليوم بالعظمة؛ لأن كل المقاييس فيه تتغير. عظيمة أهواله، وعظيم موقفه، وعظيم حسابه، وعظيم مصير من خسر فيه. وفي الدنيا قد تُستدرك الخسارة، أما خسارة ذلك اليوم فلا بعدها سوق أخرى، ولا عمر جديد، ولا فرصة توبة.

ثم يأتي الإعلان الصافي:

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٠٠﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾

تقديم اسم الجلالة في ﴿اللَّهُ أَعْبَدُ﴾ يفيد الحصر والاختصاص: الله وحده أعبد. لا أتوزع بينه وبين غيره، ولا أجعل من رضاه شطراً ومن رضا الهوى شطراً.

ثم يأتي التحدي: ﴿فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾.

ليس إقراراً لهم، بل تهديد بعد إقامة الحجة. اختاروا ما شئتم، لكن اعلّموا أن الاختيار لا يغير الحقيقة، وأن كثرة المعبودات لا تمنحها شيئاً من الألوهية.

ثم يُعرف الخسران تعريفاً جديداً:

﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾

ليس الخاسر من فقد صفقة أو منصباً أو مائلاً. تلك خسارات يمكن أن يعقّبها عوض، أو ينهيا الموت. الخاسر حقاً من خسر نفسه.

وما معنى أن يخسر الإنسان نفسه؟

أن يقضي عمره في حمايتها وإمتاعها وتزيين صورتها، ثم يسلمها في النهاية إلى العذاب. أن يريح العالم ويضيع صاحب الربح. أن يجمع الوسائل كلها، ثم يفقد الغاية التي من أجلها خلق.

﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾.

تلك الروابط التي كانت مصدر الأُنس قد تتحول يوم القيامة إلى فراقٍ أبدي. يجتمع أهل الإيمان في النعيم، ويفترق من فرقت بينهم العقائد والطرق. وما أقسى أن يرى الإنسان أحبابه، ثم يعلم أن الطريق قد انقسم فلا لقاء بعده!

﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

كل ما سواه خسارة صغيرة. أما أن تخسر نفسك وأهلك والخلود في رضوان الله، فذلك هو الخسران الذي لا تستره عبارة، ولا يُداوى بتعويض.

ثم ترسم السورة النار لا كموضع بعيد، بل كحيز يحيط بأصحابه:

﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾

الظلة في أصل معناها ما يستظل به الإنسان طلباً للراحة، لكن الصورة تنقلب هنا: ظلّة من النار. ما كان يُرجى منه الحماية صار عذاباً.

ومن فوقهم نار، ومن تحتهم نار؛ إحاطة لا منفذ منها، كأن الخطيئة التي أحاطت بقلب الإنسان في الدنيا تحولت في الآخرة إلى نار تحيط بجسده.

ثم يبين الله الغاية من عرض هذا المشهد:

﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ﴾.

التخويف هنا رحمة؛ لأن من أخبرك بالخطر قبل وقوعه أراد نجاتك. ليست آيات الوعيد إغلاقاً لباب الأمل، بل جرس إنذار قبل أن يصير الندم بلا جدوى.

ثم يأتي النداء حميماً وسط النار:

﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾.

لم يقل: يا أيها المذنبون، بل نسبهم إليه: ﴿يَا عِبَادِ﴾. كأن الرحمة تمتد من بين لهيب الصورة وتقول: ما زال الباب مفتوحاً، فاتقوني قبل أن تبلغوا هذا المصير.

إن الله يخوفك لأنه يريد أن يحميك، ويصف لك النار حتى لا تراها، ويحذرك من الطريق لأنه يريد لك الوصول إلى السلام.

وفي مقابل الذين أحاطت بهم النار، تظهر صورة الناجين:

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾

الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده، فعبده الناس أو أطاعوه في معصية الله أو جعلوه مرجعاً أعلى ينازع شرع الله وحقه. وقد يأتي بصور شتى: صنماً، أو شيطاناً، أو طاغية، أو هوى، أو منظومة تطلب من الإنسان أن يبيع ضميره.

والنجاة لا تتحقق بمجرد رفض الطاغوت، بل لا بد من اتجاهٍ بديل:

﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾.

فالقلب لا يعيش بلا معبود. إن لم يرجع إلى الله، صنع لنفسه آلهةً أخرى. والتحرر الحقيقي ليس التخلص من عبودية ظاهرة للوقوع في عبودية الشهوة، بل أن تسقط كل العبوديات لأن القلب استقر عند الله.

﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾.

بشارة في الدنيا بالطمأنينة والهداية، وبشارة عند الموت بالرضوان، وبشارة في الآخرة بالجنة. ومن اجتنب الطاغوت قد يخسر أماناً زائفاً أو مصلحةً عاجلة، لكنه يفوز بالبشرى التي تأتيه من الله. ثم يشرفهم بالإضافة مرة أخرى:

﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ﴾.

ومن هم هؤلاء العباد؟

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

إنهم لا يغلقون عقولهم، ولا يخافون من سماع الكلمة؛ لأنهم يمتلكون ميزاناً يفرزون به الأقوال. يسمعون، لكنهم لا يتبعون كل ما يسمعون. يميزون ثم يختارون الأحسن؛ يطلبون الحق لا ما يوافق الهوى، والدليل لا ما يشبه الموروث النفسي.

والاستماع أعمق من السماع؛ فقد تسمع الأذن ولا يحضر القلب. أما هؤلاء فينصتون باحثين عن الهداية.

﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾.

لا يكتفون بالإعجاب بالأحسن، بل يتبعونه. فالحق في القرآن ليس لوحةً تتأمل جمالها ثم نمضي، بل طريقٌ نسلكه.

وهذه علامة الهداية:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾.

الهداية ليست مجرد أن تعرف الجواب، بل أن تمتلك التجرد الذي يجعلك تتبعه ولو خالف رغبتك، وأن يكون الحق أحب إليك من انتصار نفسك.

ثم تسأل السورة سؤالاً يواجه حدود الدور البشري:

﴿أَفَنُحْ قَ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾

ما أثقل أن يبلغ الإنسان من الإصرار حداً يستحق به كلمة العذاب! لقد توالى عليه الآيات، وتحركت فطرته، وجاءته الإنذارات، لكنه اختار أن يغلق الأبواب من الداخل.

والخطاب يخفف عن النبي ﷺ ألم الحرص على المعاندين: أنت تدعو وتبين وتبذل، لكنك لا تملك أن تنتزع من النار من اختار طريقها حتى استحقها.

وفي ذلك درس لكل حامل رسالة: لا تحمل نفسك فوق طاقتها. ازرع النور، واصدق في البلاغ، لكن لا تجعل إعراض الناس يهدم قلبك. الهداية بيد الله، والقلوب ليست ملكاً للدعاة.

ومع ذلك لا تبرر الآية القسوة أو ترك الدعوة؛ بل تحرر الداعية من وهم السيطرة على النتائج. عليه صدق البذل، وليس عليه خلق الهداية في القلوب.

ثم يفتح المشهد من النار المحيطة إلى الغرف العالية:

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقَهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾

هناك ظُلٌّ من النار بعضها فوق بعض، وهنا غُرَفٌ من النعيم بعضها فوق بعض. إنه التقابل المهيّب بين مصيرين صنعتهما اختيارات القلب.

﴿غُرَفٌ مِنْ فَوْقَهَا غُرَفٌ﴾.

علوٌّ فوق علو، ونعيم فوق نعيم. الذين خفضوا جباههم لله في الليل يرفعهم الله في غرف الجنة. والذين هبطوا من شهواتهم إلى طاعة ربهم يصعدون في الآخرة إلى المنازل العالية.

﴿مَبْنِيَّةٌ﴾.

ليست أحلاماً عابرة ولا صوراً رمزية، بل مساكن أعدها الله لعباده. وإذا كان البناء من وعد الله، فأبي جمال تستطيع الخيلة أن تحيط به؟

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

في الدنيا يرهق الإنسان نفسه ليقم منزلاً قد يتركه بعد سنوات. أما هناك فدار لا يطرقها فناء، ولا يهددها زوال، ولا يدخلها مرض، ولا تعبرها جنازة، ولا تنطفئ فيها ضحكة خوفاً مما بعدها.

ثم يختم الوعد بما يقطع تردد القلب:

﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾.

قد تخذلك الوعود البشرية؛ لأن أصحابها يضعفون أو يتغيرون أو يعجزون. أما وعد الله فصادرٌ عن قدرةٍ لا تعجز، وعلمٍ لا ينسى، وكرمٍ لا ينفد.

ولذلك يستطيع المؤمن أن يصبر على قسوة الطريق؛ لأنه لا يمشي نحو مجهول، بل يمشي إلى وعد.

إشراقة المحطة

تكشف هذه الآيات عن صورتين للإنسان:

إنسانٌ لا يعرف الله إلا حين تمسه الشدة، ثم ينساه إذا عادت النعمة. وإنسانٌ يعرف الله في هدوء الليل، ساجداً وقائماً، يخاف الآخرة ويرجو الرحمة.

الأول يقوده نسيانه إلى النار التي تحيط به من فوقه وتحتة. والثاني يقوده قنوته إلى غرفٍ من فوقها غرف.

وبين الظلل والغرف يُصنع المصير في لحظات تبدو صغيرة: دعاءٌ بعد نعمة، وسجدةٌ في ظلام، وصبرٌ على ألم، ورفضٌ لطاغوت، وإنصاتٌ لكلمة الحق، وإخلاصٌ لا يراه إلا الله. فاسأل نفسك:

هل أتذكر الله بعد زوال الشدة كما ذكرته في أثنائها؟ هل غيّرتني النعمة، أم قرّبتني من المنعم؟ وهل لي خبيئةٌ من الليل لا يعلمها أحد؟ وهل أخاف الآخرة خوفاً يردعني، وأرجو الرحمة رجاءً ينهض بي؟ وإذا سمعت الحق، فهل أتبعه، أم أختار منه ما يوافقني فقط؟
إن الغرف العالية لا تبدأ عند أبواب الجنة؛ إنها تبدأ من سجدةٍ صادقة في غرفة مظلمة، حين يكون الناس نياماً، ويكون القلب وحده بين يدي الله.

ماءٌ ينزل من السماء، وتُكتبُ تنفتح له الصدور

الآيات: (٢١-٣١)

بعد أن رفعت السورة أبصارنا إلى غرف الجنة، وأرثنا الوعد الذي لا يخلفه الله، تعيدنا إلى الأرض؛ لا لتقطعنا عن الآخرة، بل لتجعل من مشاهد الدنيا جسوراً إليها. إن القرآن لا يأخذ الإنسان بعيداً عن العالم، بل يعيده إليه بعينٍ جديدة. الماء الذي يمر به الغافل دون أن يتوقف، يراه المؤمن رسالة. والنبت الذي يبس بعد اخضراره ليس حدثاً زراعياً عابراً، بل صورة مكثفة للعمر كله. وتعاقب الفصول ليس مجرد تبدل في الطقس، بل شرح صامت لحقيقة البعث والفناء.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

تبدأ الآية بسؤال الرؤية:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾.

وليس المقصود رؤية العين وحدها؛ فكم من إنسان رأى المطر ولم ير الآية، وشاهد الزرع ولم يبصر الرسالة! إنما هي رؤية القلب حين تتجاوز ظاهر الأشياء إلى اليد التي تدبرها.

﴿أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾.

الماء واحد، لكن آثاره لا تكاد تُحصى. ينزل شفافاً لا لون له، ثم يدخل الأرض فيخرج منها ألواناً لا تنتهي، وروائح متباينة، وثمرات مختلفة الطعوم. يسقي الحلو والمر، واللين والخشن، والأبيض والأحمر، وكلها ترتوي من ماء واحد.

وهذه آية التوحيد في قلب التنوع: اختلاف النتائج لا يعني تعدد المدير، بل يكشف اتساع القدرة الواحدة.

﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾.

يا لها من صورة خفية! ينزل الماء أمام أعيننا، ثم يغيب في باطن الأرض، ويسلك طرقاً لا نراها، ويمضي في عروقها كما يمضي الدم في عروق الجسد، ثم يظهر في ينبوع هنا أو بئر هناك.

إن الذي يسلك قطرات الماء في ظلمات الأرض هو الذي يسلك الأقدار في خفايا الحياة. قد يغيب عنك الخير بعد نزوله، وتظن أنه ضاع، وهو في الحقيقة يسير في ممراتٍ لا تراها ليخرج لك في الموعد الذي قدره الله.

ليس كل ما اختفى قد فُقد. أحياناً يخفي الله البذور تحت التراب، والماء في الأعماق، والفرج وراء حجب الغيب؛ ليعلمك أن تديره لا يتوقف حين تنقطع رؤيتك.

ثم يخرج بالماء:

﴿زَرَعًا مُّخْتَلَفًا لَّوَّانَهُ﴾.

كان المكان قبل المطر صامتاً يابساً، ثم تحركت الحياة من تحته. وكأن الأرض كانت تحفظ سرّاً لم نكن نراه. وحين جاء الأمر، انفجرت ألوانها دفعةً واحدة.

وكذلك القلوب؛ قد تراها قاحلة، ثم تنزل عليها آيةٌ صادقة، أو دمعة توبة، أو لحظة انكسار، فإذا الحياة التي ظننتها ماتت تستيقظ من أعماقها.

لكن المشهد لا يبقى عند اخضرار الزرع:

﴿ثُمَّ يَبْهِيحُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾.

تتكرر ﴿ثُمَّ﴾، فتطوي أماننا مراحل العمر. اخضرار، ثم نضج، ثم اصفرار، ثم حطام. إنها سيرة الدنيا في آية.

كل ما يبهز العين يمر من هنا: شبابٌ يشتد، ثم يلين؛ قوةٌ ترتفع، ثم تضعف؛ وجهٌ يشرق، ثم تكتب الأيام عليه آثارها؛ حضارةٌ تزدهر، ثم تصبح خيراً في كتاب.

والعجيب أن الزرع لا يشعر في لحظة اخضراره أنه يسير إلى الاصفرار. وكذلك الإنسان في عنفوانه؛ يظن أن القوة وصف ثابت، وأن الأيام تمر من حوله ولا تمر به، حتى يرى أول أوراقه الداخلية تتغير.

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾.

الحطام هو ما تكسر ويبس. كان بالأمس منظرًا يسر العين، وصار اليوم شيئاً تدوسه الأقدام أو تذروه الرياح.

وليس الآية دعوةً إلى كراهية الجمال، بل إلى معرفة حقيقته. استمتع بما أحل الله، لكن لا تطلب انخلود من شيء كُتب عليه الذبول. أحب الناس، لكن لا تجعل فناءهم يهدم إيمانك. خذ من الدنيا زاداً، ولا تتخذ منها دار قرار.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

إنما يتذكر صاحب اللب؛ لأنه لا يقف عند اللون الأخضر، بل يرى الحطام الكامن في نهايته، ولا يقف عند الحطام، بل يرى القدرة التي ستعيد الحياة بعد الموت.

فالآية تتحدث عن الفناء، لكنها تومئ إلى البعث أيضاً، الذي أخرج الزرع من الأرض الميتة قادراً أن يخرج الناس من القبور. والمطر بروفة كونية تتكرر أمام الإنسان، لئلا يستبعد يوم النشور.

ومن حياة الأرض تنتقل السورة إلى حياة القلب:

﴿أَقْنِ شَرَحَ اللَّهِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

كما تنزل السماء ماءً تقيها به الأرض، ينزل الله على القلب نوراً يحيا به الصدر.

﴿شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾.

شرح الصدر هو توسيعه للحق حتى يدخله بلا اختناق. فبعض الناس يسمع الأمر الإلهي فيشعر أنه عبءٌ يضيق عليه حياته، وبعضهم يسمعه فيجد فيه اتساعاً وطمأنينة. ليس الاختلاف في الأمر، بل في الصدر الذي تلقاه.

حين يشرح الله صدر العبد للإسلام، تصبح الطاعة راحةً بعد أن كانت ثقيلة، والقرآن أنساً بعد أن كان صوتاً بعيداً، والسجود ملجأً بعد أن كان عادة، والتوبة عودةً إلى البيت بعد أن كانت اتهاماً للنفس.

إن الصدر المشروح لا يعني أنه لا يتألم، بل يعني أن الألم لا يغلقه عن الله. ولا يعني أن الأسئلة تختفي كلها، بل يعني أن الثقة بالله تصبح أوسع من مساحة الأسئلة.

وقد يملك المرء بيتاً واسعاً ويعيش في ضيق، بينما يعيش المؤمن في مكانٍ ضيقٍ وصدره ممتد في آفاق الرضا. فالسعة الحقيقية ليست في الجدران التي تحيط بالجسد، بل في المعنى الذي يسكن القلب.

﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾.

لم تقل الآية: في نور، بل ﴿عَلَى نُورٍ﴾؛ وكأن النور أرضٌ ثابتة يقف عليها المؤمن ويسير. إنه ليس ومضة عاطفية عابرة، بل قاعدة يرى بها الأشياء في مواضعها.

بالنور يرى الدنيا ممراً لا مستقراً، ويرى البلاء تربيةً لا إهمالاً، ويرى الطاعة حريةً لا قيداً، ويرى المعصية سقوطاً وإن زيناها الناس، ويرى الآخرة حقيقةً وإن غابت عن العيون.

والنور ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾؛ ليس ذكاءً صنعه الإنسان بنفسه، ولا مهارةً ذهنية، بل هبة من الله. لذلك لا يتكبر المهتدي على الضال، بل يشكر ويرتجف؛ لأن الذي فتح قلبه قادر أن يخلّذه إن ركن إلى نفسه.

وفي الجهة المقابلة:

﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

لم تقل الآية: القاسية قلوبهم عن ذكر الله؛ بل من ذكر الله؛ أي إن الذكر نفسه الذي يلين به قلب المؤمن يصير موضع نفور القاسي. تُنلى عليه الآيات فلا يرتجف، ويُذكر بالموت فلا يستعد، وتُفتح له أبواب التوبة فيؤجل، ويرى الجنائز تمضي من حوله كأنها تحدث عن غيره.

القسوة ليست أن يبكي الإنسان قليلاً؛ فقد تكون الطباع هادئةً أو جافة. القسوة الحقيقية أن تعرف الحق فلا تنقاد له، وأن تسمع الإنذار فلا تغير طريقك، وأن تتكرر عليك النعمة فلا تستيقظ فيك المحبة.

والقلب القاسي لا يولد قاسياً دفعة واحدة؛ إنما تتراكم عليه الذنوب المؤجلة، والتبريرات المتكررة، والعهود المنقوضة، حتى تصير الآية التي كانت تهزه تمر عليه بلا أثر.

ما أخطر الاعتياد على كلام الله! قد يقرأ الإنسان الآية عشرات المرات، فيفقد دهشتها لا لأنها فقدت نورها، بل لأن نافذة قلبه غطاها الغبار.

﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

القسوة ضلال؛ لأنها تعطل أداة الاهتداء. فما قيمة أن تكون العلامات واضحة إذا كان القلب لا يستجيب؟ وما قيمة النور إذا أصر الإنسان على إغماض عينيه؟

ثم تأتي آية هي من أجمل ما وصف به القرآن نفسه:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدًى مِنَ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾.

كل حديثٍ سواه يعتريه النقص: قد يصدق في موضع ويقتصر في آخر، وقد يلعب زمناً ثم ييهت، وقد يلامس جانباً من النفس ويغفل جوانب. أما القرآن فهو أحسن الحديث؛ لأن المتكلم به هو الذي خلق اللغة والعقل والقلب، ويعلم ما يصلح الإنسان في سره وعلايته، ودينه وآخرته.

هو أحسن الحديث في مصدره، وأصدق خبراً، وأعدل حكماً، وأجله نظماً، وأعمقه أثراً. لا يلى من كثرة الترداد؛ لأن قارئه لا يعود إليه بالقلب نفسه. كلما نضح الإنسان رأى في الآية معنى كان يمر به من قبل ولا يراه.

﴿كَأَبًا مُتَشَابِهًا﴾.

يشبه بعضه بعضاً في الصدق والجلال والاتساق. لا تتناقض أجزاؤه، ولا يهدم آخره أوله، بل تصدق الآيات بعضها، وتفتح المقاطع بعضها، ويتردد النور الواحد في موضوعات متعددة. وهو ﴿مَثَانِي﴾؛ تنكرر فيه الحقائق والمواعظ والقصص والوعد والوعيد، لا عجزاً عن التجديد، بل رحمة بالقلب الذي ينسى. فالإنسان لا تكفيه الحقيقة مرة واحدة؛ يحتاج أن تعود إليه بألوان متعددة، من باب العقل مرة، ومن باب العاطفة مرة، ومن مشهد التاريخ، ومن صورة الكون، ومن نداء الرجاء، ومن زلزلة الوعيد. إن التكرار القرآني ليس دورانياً في المكان، بل صعوداً حول الحقيقة نفسها؛ تراها كل مرة من أفي جديد.

ثم تصف الآية الجسد حين يستقبل الوحي:

﴿تَقْشَعْرُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾.

لا يبقى القرآن فكرةً في العقل؛ إنه ينفذ إلى الجسد. يقشعر الجلد حين تمر بالقلب مهابة المتكلم، وحين يرى العبد مشاهد القيامة كأنها قائمة أمامه، وحين يسمع وعيداً فيشعر أن الآية تقتصده بالاسم. إن الخشية تجعل للنص حرارة لا يدركها القلب اللاهي. قد يسمع شخصان الآية نفسها، فيحفل أحدهما ألفاظها، بينما تسقط من عين الآخر دمعة غيرت حياته. لكن القرآن لا يترك المؤمن في الرجة وحدها:

﴿ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

تقشعر أولاً من الجلال، ثم تلين إلى الجمال. تخاف من العدل، ثم تسكن إلى الرحمة. ترى النار، ثم تبصر باب المغفرة. وهذه من خصائص التربية القرآنية: لا يكسر القلب ليتركه مكسوراً، بل يكسره من كبريائه، ثم يجبره بمعرفة الله.

وتأمل أن اللين لم ينسب إلى الجلد وحده، بل إلى القلوب. فقد تتحرك العاطفة لحظة، وتدمع العين، ثم يبقى القلب على عادته. أما الأثر القرآني الحق فهو لينٌ داخلي يجعل الإنسان أكثر خضوعاً للحق، وأسرع إلى التوبة، وأرحم بالخلق، وأقل إعجاباً بنفسه.

﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

ذلك الاقشعرار واللين ليسا صناعةً صوتية، ولا مجرد استجابة لجمال التلاوة؛ بل أثر هداية يضعها الله في القلب الصادق. وقد يهدي الله بالآية نفسها إنساناً ويترك آخر، لأن الأول فتح لها نافذته، والثاني بنى بينه وبينها جدار المكابرة.

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

من أعرض عن أسباب الهداية، واستحب العمى، وعاند الحق بعد ظهوره، خذله الله إلى ما اختار. وحين يسلب الله من العبد نور التوفيق، لا تستطيع الدنيا كلها أن تضع النور في قلبه. لذلك كان من أعظم الدعاء أن تسأل الله قلباً حياً. ليس الخطر أن تنقص معلوماتك، بل أن تمر عليك الآيات ولا تعود تشعر بشيء.

ثم تنقلنا السورة فجأة إلى مشهد لا يستطيع صاحبه أن يحمي فيه أشرف مواضعه:

﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهِ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾

في الدنيا إذا باغت الإنسان خطراً دفعه بيديه عن وجهه؛ لأن الوجه موضع الكرامة والحواس والهوية. أما هنا فقد غلّت اليدان أو عجّزتا، فلم يبق له إلا وجهه يتقي به العذاب. ما أشد انقلاب الصورة! الوجه الذي كان يعلوه الكبر في الدنيا، ويعرض عن السجود، صار حائلاً ضعيفاً أمام النار. ولو وضعه صاحبه على الأرض لله مختاراً في الدنيا، لما اضطر أن يتقي به العذاب ذليلاً في الآخرة.

﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

العذاب ليس شيئاً غريباً فرض عليهم بلا سبب؛ إنه ثمرة الكسب. كانت الذنوب في الدنيا أفعالاً تمر، فإذا بها في الآخرة حقائق تذاق. وكل معصية يستخف بها الإنسان تحمل في باطنها شيئاً من هذا المصير، لكن الغفلة تمنعه من تذوق مرارتها الآن.

وتقول الآية: ﴿تَكْسِبُونَ﴾، مع أن الإنسان يستعمل الكسب عادةً فيما ينفع. وكأن السخرية المؤلمة تكشف أنه أمضى عمره يجمع أسباب خسارته، ويكدّ لتكوين عذابه، كما يكدّ غيره في جمع النجاة.

ثم تفتح السورة نافذة التاريخ:

﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ الْخَازِنَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كُنُوا يَعْلَمُونَ﴾

التكذيب ليس حادثة جديدة. للطغيان أسلاف، وللمكابرة تاريخ، وللغرور لغة تتكرر وإن تغيرت الوجوه.

﴿فَآتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

هذه أشد جهات الخطر: الجهة التي لم يحسبها الإنسان. قد يحصن الطاغية أبوابه كلها، ثم يأتيه سقوطه من باب لم يره. وقد يجمع أسباب قوته، فتكون بعض هذه الأسباب نفسها طريق انهياره. إن الله لا يحتاج إلى أن يهزم الباطل من الموضع الذي يتوقعه. ما دامت السماوات والأرض جنوده، فإن ثغرة لا تخطر للظالم قادرة أن تفتح عليه نهايته.

﴿فَإَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

الخزي عذاب يضرب الصورة التي بنى المتكبر مجده حولها. أراد العلو، فصار عبرة. أراد أن يخلد اسمه بالهبة، فخلده التاريخ باللعنة. وما أهول أن يتحول السلطان الذي حمى صاحبه زمناً إلى قصة تفضحه إلى آخر الزمان!

لكن خزي الدنيا، على شدته، ليس النهاية:

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾.

في الدنيا قد ينتهي الألم بالموت، أما هناك فالموت نفسه قد انتهى. وفي الدنيا تختلط العقوبة بمهلة، أما الآخرة فدار الجزاء الخالص.

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

لو كان العلم قد استقر في قلوبهم، لما باعوا الأبدي بالعاجل، ولا اختاروا خزيًا كبيراً من أجل لذة صغيرة.

ثم تعود السورة إلى وظيفة القرآن:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٠٠﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

ضرب الله الأمثال؛ لأن المعنى المجرد قد يمر بعيداً، فإذا تجسد في صورة رآه القلب. الماء والزرع، والعبد والشركاء، والنور والظلمة: كلها نوافذ يطل منها الإنسان على الحقائق الغيبية والعقلية.

﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾.

تنوعت المداخل، لثلا يقول أحد إن الحقيقة لم تصل إليه بالطريقة التي يفهمها. خاطب القرآن العقل بالهجة، والقلب بالموعظة، والخيال بالمشهد، والضمير بالقصة، والفطرة ببناء التوحيد.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

كأن الحق موجوداً أصلاً في أعماق الفطرة، لكن الإنسان نسيه، فجاء القرآن لا ليزرع فيه شيئاً غريباً، بل ليوقظ ما دفنته الغفلة.

﴿قُرْأَنَا عَرَبِيًّا﴾.

نزل بلسان واضح، في لغة العرب التي بلغت في القرآن ذروة طاقتها على حمل المعنى والجمال معاً. لم يكن اللفظ وعاءً خارجياً، بل جاء النظم جزءاً من الهداية؛ توقظ موسيقاه السمع، وتفتح صورته الخيال، وتبني تراكيبه المعنى في القلب.

﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾.

لا التواء في عقيدته، ولا تناقض في أخباره، ولا انحراف في ميزانه، ولا اضطراب في طريقته. مستقيمٌ لأنه صادر عن الله، بينما تنعرج المناهج البشرية بمقدار ما يدخلها من الجهل والهوى. وجاء القرآن مستقيماً ليقم إنساناً مستقيماً. فمن عاش معه بصدق، كشف له اعوجاجاته الخفية: اعوجاج النية، واعوجاج النظر، واعوجاج الحب والخوف والولاء.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

مرة أخرى لا ينتهي القرآن عند المعرفة، بل عند التقوى. الغاية أن يتحول البيان إلى حاجزٍ بينك وبين السقوط.

ثم يضرب القرآن مثلاً يجمع قضية التوحيد كلها في صورة عبيد:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

الرجل الأول يملكه شركاء متشاكسون: متنازعون، سيئو الخلق، كل واحد منهم يأمره بغير ما يأمره الآخر. إن أرضى هذا أغضب ذاك، وإن اتجه إلى أحدهم جذبته الآخر. لا يعرف لمن يطيع، ولا أين يستقر، ولا كيف ينجو من مطالبهم المتعارضة. إنها صورة المشرك.

ليس الشرك راحةً بتعدد الجهات، بل تمزقٌ بينها. من عبد المال خاف فقده، ومن عبد المكانة عاش أسير نظرات الناس، ومن عبد الشهوة انتقل من مطلبٍ إلى مطلب، ومن جعل البشر مرجعه الأعلى تفرقت نفسه بين أهوائهم.

مرةً يريد رضا الله، ومرةً يريد تصفيق الجمهور، ومرةً يخضع لضغط المجتمع، ومرةً ينحني لمصلحته. صدرٌ صغير يتنازعه سادةٌ كثيرون؛ فكيف يطمئن؟

أما الآخر فهو:

﴿رَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾.

خالصاً لسيد واحد. يعرف من يطيع، ولمن يعمل، وإلى من يرجع. ليست فيه قسمة، ولا تمزق، ولا صراع بين آلهة خفية.

وهذه راحة التوحيد الكبرى: أن تجمع وجهتك في الله. فإذا رضي الله، هان غضب الخلق. وإذا أمرك، سقط تردد الهوى. وإذا منعك، علمت أن المنع منه، وإذا أعطاك، لم تتعلق يدك إلا به. الموحد قد تتفرق به الطرق الخارجية، لكن قلبه مجموع. والمشارك قد تستقيم له الدنيا في ظاهرها، لكن قلبه موزع بين مخاوفه وأطماعه.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا؟﴾

لا يستوي عبدٌ ممزق وعبدٌ خالص، ولا قلبٌ تقتسمه الدنيا وقلبٌ استراح إلى الله. ثم يأتي الحمد:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

الحمد لله على نعمة التوحيد؛ فهي ليست قضية ذهنية فحسب، بل إنقاذٌ للنفس من التشتت. ومن ذاق اجتماع القلب على الله عرف أن «لا إله إلا الله» ليست كلمة نجاة في الآخرة فقط، بل سكينه في الدنيا.

ثم تحاطب الآيات أعظم حيٍّ في ذلك الزمن بحقيقة تشمل الجميع:

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾

ما أوجزها، وما أثقلها!

لم تقل: ستموت، بل ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾. كأن الموت صفةٌ قائمة بالحي منذ ولادته؛ لأنه يحمل نهايته معه، وكل نفسٍ ينتفسه يقربه منها.

والخطاب للنبي ﷺ، أحب الخلق إلى الله. فإذا كان الموت لا يتجاوز رسول الله ﷺ، فبأي شيء يظن غيره أنه مستثنى؟

﴿وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾.

ستموت وأعداؤك يموتون. فلا يبقى لأحدٍ سلطان أبدي، ولا تستمر خصومة على الأرض إلى غير نهاية. الموت يسوي في الدخول إلى القبر، لكنه لا يسوي في المصير بعده.

وفي الآية تسلية للنبي ﷺ: لن يبقى المكذبون خالدين في ضجيجهم، ولن تبقى أنت في ألم المواجهة. ستنتهي مرحلة الأرض، ثم يبدأ القضاء العادل.

وهي تربية لكل إنسان: لا تنصرف كأنك مقيم. لا تؤجل التوبة كأن العمر ملكك، ولا تظلم كأنك لن تُسأل، ولا تحمل في قلبك عداواتٍ أكبر من المدة التي بقيت لك.

إننا لا نسير نحو الموت فقط؛ الموت يسير نحونا أيضاً. وبين المسيرين موعدٌ لا يتأخر.

لكن الموت ليس إغلاقاً للقضية:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾

ستنقل الخصومات من محاكم الأرض إلى محكمة الله. كل حق ضاع هنا سيظهر هناك، وكل كلمة ظلم، وكل اقتراء، وكل دمة سقطت بسبب متجبر، وكل مظلمة لم تجد من ينصفها.

﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾.

ليس عند قاضيٍ يجهل بعض الوقائع، ولا عند شاهدٍ ينسى، ولا في نظامٍ تستطيع القوة أن تؤثر فيه؛ بل عند الرب الذي يعلم السرائر كما يعلم الأعمال، ويعرف من بدأ العدوان، ومن زين الحكاية، ومن أخفى الحقيقة.

في الدنيا قد ينتصر صاحب الصوت الأعلى، وفي الآخرة ينتصر الحق ولو كان صاحبه صامتاً. وفي الدنيا قد يحسن الظالم كتابة روايته، لكن بين يدي الله لا تنفع البلاغة في تزوير الحقيقة. وتأمل: لم تقل الآية إن المكذبين وحدهم يختصمون، بل ﴿إِنَّكُمْ﴾. فكل خصومة سيأتي أصحابها. ما بين الأزواج، وما بين الأقارب، وما بين الرفاق، وما بين الحاكم والمحكوم، وما بين العالم ومن اتبعه، وما بين القلم ومن جرحه.

فليخف الإنسان أن يحمل إلى ساحة القيامة ملفاً كان يستطيع إغلاقه باعتذارٍ صادق أو حقٍّ يؤديه اليوم.

إشراقة المحطة

تبدأ هذه المحطة بماءٍ ينزل من السماء، وتنتهي بأناسٍ ينهضون من الموت ليختصموا عند الله. وبين المشهدين تعلينا السورة أن كل شيء يجري إلى نهايته: الماء إلى الناييع، والزرع إلى الاصفرار، والعمر إلى الموت، والخصومات إلى محكمة الآخرة.

لكن في قلب هذا الجريان ينزل أحسن الحديث؛ يمنح الإنسان نوراً قبل أن تنطفئ أيامه. فمن شرح الله صدره، عاش على نور، ولان قلبه للذكر، واجتمعت عبوديته على الله. ومن قسا قلبه، رأى آيات الحياة والموت تمر أمامه دون أن يتغير.

فاسأل نفسك:

هل أرى في تحولات الدنيا نهايتي، أم أتوهم أن الذبول مكتوب على غيري؟ وهل يشرح القرآن صدري، أم صرت أسمع به بقلب اعتاد ولم يعد يرتجف؟ هل تجمعني عبودية الله، أم تتشاكس في داخلي آلهة القبول والمال والخوف والهوى؟ وأي خصومة أحملها معي لو جاء الموت هذه الليلة؟ هل هناك حقٌ يجب أن أردّه، أو قلبٌ ينبغي أن أسترضيه، أو ظلمٌ يجب أن أتوب منه؟ فغداً يموت المتخاصمون جميعاً، لكن الخصومة لا تموت؛ إنها تنتظرهم عند ربهم.

حين يقف العبد بين كذب المفتريين وكفاية الله

الآيات: (٣٢-٤١)

بعد أن ختمت المحطة السابقة بمشهد الخصومة عند الله، تبدأ هذه المحطة بتحديد طرفي القضية: إنسانٌ كذب على الله وكذب بالحق، وإنسانٌ جاء بالصدق وصدق به.

فالخصومة في جوهرها ليست نزاعاً بين أهواء بشرية متساوية، بل مواجهة بين الحق والكذب، وبين قلبٍ تلقى نور الله فانقاد، وقلبٍ عرف الحق ثم أقام في وجهه حجاب التكذيب.

﴿فَنَ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾
﴿فَنَ أَظْلَمُ؟﴾

سؤال لا ينتظر جواباً؛ لأنه ينفي أن يكون في مراتب الظلم ما هو أعظم من هذا: أن يكذب الإنسان على الله، ثم يكذب بالصدق حين يأتيه.

لقد جمع جريمتين متقابلتين: صنع الباطل من عند نفسه ونسبه إلى الله، ثم جاءه الحق من عند الله فردّه. فتح فيه للكذب، وأغلق قلبه عن الصدق.

والكذب على الله أوسع من أن يُحتزل في ادعاء الوحي؛ فمن نسب إلى الله ما لم يقله، أو حرم ما أحل، أو أحل ما حرم، أو جعل هواه ديناً ثم صبغه بصبغة الشرع، فقد عرّض نفسه لهذا الوعيد. إن أخطر الكلمات ليست تلك التي تُقال عن البشر، بل التي تُقال عن الله بغير علم. فالكلمة هنا لا تشوه سمعة إنسان، بل تشوه طريق الهداية أمام الخلق.

وقد يكذب الإنسان على الله حين يقدم للناس صورةً عن ربهم لم يقدمها الوحي: فيخلق أبواب الرحمة التي فتحتها الله، أو يمنح الأمن لمن خوفه الله، أو يجعل العادات البشرية ديناً مقدساً، أو يستخدم اسم الله لتثبيت سلطانه الشخصي.

ثم لا يكتفي بالافتراء:

﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾.

التعبير بـ ﴿إِذْ جَاءَهُ﴾ يرسم الحق كأنه زائرٌ أقبل حتى بلغ الباب. لم يكن بعيداً غامضاً، بل جاءه يحل برهانه ونوره. ومع ذلك لم يستقبله.

إن المشكلة لم تكن أن الصدق لم يصل، بل أن القلب لم يرد له الوصول.

وقد سمي الله الوحي الصدق؛ لأن الصدق ليس صفةً عارضةً فيه، بل هو حقيقة كلها: صدقٌ في المصدر، وصدقٌ في الخبر، وصدقٌ في الوعد، وصدقٌ في الوعيد، وصدقٌ في وصف الإنسان والدنيا والمصير.

ثم يأتي السؤال الآخر:

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾؟

المثوى هو موضع الإقامة. وليس في الدنيا مقامٌ دائم، أما هناك فالمثوى. والذي ضاق بالحق لحظاتٍ في الدنيا، يلقي جزاء اختياره إقامةً في العذاب. كم هي مرعبة كلمة المثوى حين تتصل بجهنم! فالألم في الدنيا يحتمل لأن النفس تنتظر نهايته، لكن ماذا تفعل النفس بألم صار هو مكان الإقامة؟

وفي مقابل المفتين يظهر حملة الصدق:

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾

﴿جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾: وعلى رأس من جاء به رسول الله ﷺ، الذي حمل الوحي إلى الناس كما تلقاه، لم يبدل حرفاً ليكسب رضاهم، ولم يخف منه ما يثقل عليهم، ولم يخط الرسالة بحظ نفسه.

﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾: فليس الفضل لمن ينقل الحق بلسانه فحسب، بل لمن يؤمن به قلبه ويجسده عمله. ويدخل في هذا الوصف كل من حمل الصدق وصدق به واتبع نوره.

وجاء التعبير بالافراد أولاً: ﴿وَالَّذِي جَاءَ﴾، ثم أشار بالجمع: ﴿أُولَئِكَ﴾؛ ليتسع المعنى لكل من سار في موكب الصادقين. فالرسالة جاء بها النبي ﷺ، ثم امتد نورها في كل نفس صدقت وحملت. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

التقوى ليست خوفاً ساكناً، بل موقفٌ من الصدق: أن تستقبله حين يأتي، وأن تتخاز إليه ولو خالفك، وأن تصدق به حتى حين يكلفك أن تتخلى عن وهمٍ عشت معه طويلاً. وقد يكون من أصعب التقوى أن يعترف الإنسان بأن الحق مع غيره؛ لأن صنم النفس يحب أن يكون هو مصدر الصواب دائماً. أما المتقي فلا يهيمه من أي فم خرج الحق، ما دام قد عرف أنه من الله.

ثم تفتح الآيات أبواب الرجاء على سعتها:

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾

في الدنيا كم يشاء الإنسان ولا ينال! تتزاحم إراداته مع ضعفه، وتصطدم رغباته بحدود القدرة والزمن والمرض والفقد. قد يجد المال ولا يجد العافية، وقد يجد المحبة ثم يخطف الموت محبوبه، وقد يبلغ مراده متأخراً بعد أن فقد طعمه.

أما في الجنة:

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ﴾.

لا حاجز بين المشيئة والنعم، ولا خوف من زوال المطلوب بعد نياله. كل ما تشتهي النفس الطاهرة وتلتذ به العين موجود، بل عند الله ما لا تبلغه المشيئة؛ لأن الخيال نفسه ابن تجربة محدودة، والجنة أكبر من كل ما استطاع الإنسان أن يتخيله.

لكن الأجل من العطاء موضعه:

﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

ليست الجنة مجرد حدائق وأنهار؛ إنها قربٌ ورضوان وأمانٌ عند الرب. كل نعيم ينفصل عن المنعم ناقص، أما هناك فالنعمة تقود إلى مشاهدة آثار الكرم، ولا تحجب القلب عن الكريم.

﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

الإحسان هو أن تتجاوز مجرد أداء الواجب إلى جمال العبودية: أن تعبد الله كأنك تراه، وأن تحسن إلى خلقه، وأن تؤدي الحق بروح المحبة لا بجسد العادة وحده.

ومن عدل الله وكرمه أن العمل المحدود في الدنيا يُجَازَى بنعيم لا ينفد؛ لأن الجزاء ليس بحجم العمل فقط، بل بفضل من يقبله ويضاعفه.

ثم يأتي وعد آخر، يحتاجه كل قلب يعرف تقصيره:

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ما أعجب هذا الكرم!

في جانب السيئات: ﴿يُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾. وفي جانب الحسنات: ﴿يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أسوأ الأعمال يُمحى، وأحسن الأعمال يصير ميزان الجزاء.

ليس هذا عدلاً مجرداً فقط، بل فضلٌ يغمر العبد من جهتين: سترٌ للعيب، ومضاعفةٌ للجميل.

وتأمل كلمة ﴿يُكَفِّرَ﴾؛ فهي تحمل معنى الستر والتغطية. لا يكفي الله بأن يعفو عن السيئة، بل يسترها عن الفضيحة، ويحو أثرها إذا صدقت التوبة.

كم يحمل المؤمن في ذاكرته من مشاهد يخجل منها! كلمة قالها، ونظرة أطلقها، وعهد نقضه، وساعة غلبته فيها نفسه. وقد يغفر الله له، لكنه يظل يعذب نفسه بذاكرته؛ فتأتي الآية لتقول: إن الله قادر أن يكفر عنك حتى أسوأ ما عملت.

لكن هذا الوعد ليس إذناً للتماذي؛ إنه ثمرة الصدق والتصديق والتقوى والإحسان. فمن عرف سعة المغفرة ازداد حياءً، لا جرأة على المعصية.

ثم يجزيهم بأحسن أعمالهم؛ فكأن لحظات الصفاء التي عاشوها، وسجدهم الصادقة، وصبرهم حين اشتد البلاء، تصبح معياراً يفيض منه الجزاء على حياتهم.

إن ربك لا يبحث لك عن أسوأ لحظاتك ليعرفك بها، بل يفتح لك بالتوبة طريقاً حتى تكون أجمل لحظاتك هي عنوانك الأخير.

ثم تأتي آية لو استقرت في القلب لتحرر من جيوش الخوف كلها:

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ؟﴾

سؤال تهتز له كل المخاوف التي بنت أعشاشها في الصدر. فإذا كان الله كافياً عبده، فمن الذي يستطيع أن يهزمه؟ وإذا أحاطته الكفاية الإلهية، فأى قوة تصل إليه إلا بما قدر الله؟ لم تقل الآية: أليس الله بكافٍ رسوله فقط، بل قالت: ﴿عَبْدَهُ﴾. وكأن سر الكفاية في تحقيق العبودية؛ فكلها خلص العبد لله، كفاه الله ما أهمه.

ليس المعنى أن العبد لن يتلى، فقد كان النبي ﷺ أكل الناس عبوديةً وأشدّهم ابتلاءً. لكن الكفاية تعني ألا يتركه الله للبلاء وحده، وأن يحفظ إيمانه، ويدبر له العاقبة، ويمنع عنه ما لم يأذن به، ويجعل ما أصابه طريقاً إلى خير لا يراه في أوله.

قد تكون الكفاية دفعةً للعدو، وقد تكون تثبيتاً أمامه. وقد تكون نجاةً من المحنة، أو نجاةً بالقلب داخل المحنة. وليس أعظم من أن تُحاصر الأسباب جسد الإنسان، بينما يبقى قلبه في حصن الله. ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾.

هكذا يعمل الباطل: لا يملك حجةً فيستعمل التخويف. يخوفك بقوة البشر، وبضياع الرزق، وبانفضاض الناس، وبالمستقبل المجهول، وبالأصنام التي منحها الوهم أكبر من حجمها. يريدون أن يملؤوا قلبك بصور قوتهم حتى تصغر في عينك كفاية الله.

لكن المؤمن لا يتكر قوة الأسباب، وإنما يضعها في موضعها: أسبابٌ مخلوقة تحت سلطان الله. لا تتحرك بنفسها، ولا تستقل بنفع ولا ضرر.

إن الخوف الطبيعي لا يناقض الإيمان؛ فقد يخاف الجسد، لكن الخطر أن يتحول الخوف إلى عبودية، فيدفع الإنسان إلى بيع الحق وإرضاء المخلوق بسخط الخالق. تأتي الآية لا لتلوم ضعفك، بل لتعيد ترتيب قلبك: اسمع تهديدهم، ثم انظر فوقهم. إنهم يخوفونك بمن دون الله، والله يسألك: ألسنتُ بكافيك؟ ثم يكتمل المعنى:

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾

من هداه الله فلا يستطيع أحد أن يضل قلبه قهراً. قد يشوشون عليه، ويحاصرونه، ويزينون الباطل، لكنهم لا يملكون مفتاح قلب تولاها الله.

الهداية حصانة، لكنها ليست مجالاً للغرور؛ لأنها من الله. فلا تقل: أنا أثبت من الفتنة، بل قل: يا رب، ثبت قلبي. ومن اعتمد على هداية الأُمس دون أن يسأل الله دوامها، فقد جهل تقلب القلوب.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾

هو عزيز لا يغلب أوليائه في العقوبة، وذو انتقام من أصروا على محاربة الحق والاعتداء على عباده. وانتقام الله ليس كغضب البشر، تحركه الأهواء ونزعة التشفي؛ تعالى الله عن ذلك. إنما هو جزاء بالعدل لمن استحقه بعد قيام الحجة وإمهال التوبة. إنه انتصار الحق من بغى عليه، ورد المظالم إلى ميزانها.

فلا يملك تأخر العقوبة على الظن أن الظالم أفلت. إنما يؤخره العزيز، لا العاجز؛ ويمهله من يملك لحظة أخذه ومكانها وكيفيتها.

ثم تلزم السورة المشركين بما تقربه فطرتهم وألسنتهم:

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾

كانوا يقولون بأن الله خالق السماوات والأرض، لكن هذا الإقرار لم يتحول إلى عبادة خالصة. عرفوا ربوبية الله، ثم أشركوا معه في الألوهية.

وهذا يدل على أن المعرفة المجردة لا تنجي ما لم تصنع انقياداً. قد تعرف أن الله الخالق والرازق، ثم تعيش وكأن رزقك بيد الناس، أو كأن مصيرك معلق برضاهم. وهنا تقع فجوة بين ما يقوله اللسان وما يعبد القلب.

ثم يأتي السؤال الذي يكشف عجز المعبودات:

﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ؟﴾

إن أراد الله أن يمتحنك، فلن يستطيع مخلوق أن يرفع عنك ما لم يأذن الله برفعه. قد يكون الطبيب سبباً في العلاج، والدواء سبباً في الشفاء، والصديق سبباً في العون، لكنها جميعاً أبواب؛ أما الفاعل على الحقيقة فهو الله.

والتوحيد لا يعني ترك الأسباب، بل يعني ألا يسكن القلب إليها. تأخذ الدواء بيدك، وقلبك مع الشافي. تطرق الباب، وقلبك مع من يفتح الأبواب. تسعى في الأرض، لكن رجاءك مع رب السماء.

ثم يعرض الوجه الآخر:

﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ؟﴾

إذا أراد الله أن يرحمك، فمن يستطيع أن يحبس رحمته؟ قد يغلق الناس في وجهك أبوابهم كلها، ثم يفتح الله لك باباً لم يعرفوا مكانه. قد يجتمعون ليحرمونك، فتأتيك العطية من الطريق نفسه الذي أرادوا أن يؤذوك منه.

رحمة الله لا تحتاج إلى موافقة البشر، ولا تمر عبر حدود قدرتهم. إذا أرادها الله لعبده، وصلت إليه ولو كان في بطن الحوت، أو في قاع الجب، أو خلف جدران السجن، أو وحيداً في صحراء لا يعرف موضعه أحد.

وهنا يولد الإعلان الذي يجمع معنى الآية كلها:

﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾

كلمتان، لكنهما تبيان في القلب وطناً من الأمان.

حسبي الله: أي كافيي الله. هو عدتي حين تقل العدة، وأُنيسي حين تفتقر الصحة، وغناي حين تفرغ اليد، وقوتي حين يعترف جسدي بضعفه.

لكن قولها ليس تعويذة لفظية، بل مقام من المعرفة. أن تقولها وقلبك يعلم أن ما عند الله أبقي، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن الخلق لو اجتمعوا لم يخرجوا عن قضائه.

﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

لم يقل: عليه يتكاسل المتكاسلون. فالتوكل ليس تركاً للسعي، بل تحريراً للسعي من عبودية النتائج. تعمل ما تستطيع، ثم لا تجعل قلبك مرتهاً لما تستطيع. تبذل السبب، وتعلم أن السبب ميت حتى يأذن الله له أن يعمل.

التوكل لا يطلب من الأسباب أكثر مما خلقها الله له، ولا يعطيها من خوفه ورجائه ما لا تستحق. ثم يعلن النبي ﷺ ثباته أمام قومه:

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۖ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ۖ﴾
﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ ۖ﴾

أي امضوا على حالكم وطريقتكم إن أصررتم بعد قيام الحجة، وأنا ثابتٌ على طريقي. إنها ليست مساومةً بين حق وباطل، بل مفصلة بعد استنفاد البيان.
﴿إِنِّي عَامِلٌ ۖ﴾

الحق لا ينتظر أن تتوقف قوى الباطل حتى يبدأ عمله. صاحب الرسالة لا يجعل استجابته رهينةً باستجابة خصومه. يعمل لأن الله أمره، لا لأن الظروف وعدته بنتيجة قريبة. وفي الآية يقين هادئ؛ فلا انفعال مضطرب، ولا خوف من ضييع المكذبين. الزمن نفسه سيكشف الحقيقة:
﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۖ﴾

سيعلمون عند نزول العذاب، أو عند حضور الموت، أو في يوم القيامة. وما أخطر العلم حين يأتي بعد انقضاء زمن العمل! فالعلم الذي يخفي هو ما جاء قبل المصير فغير الطريق، أما الذي يأتي عند معاينة العذاب فلا يرد فائتاً.
﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ ۖ﴾

فالخزي يهدم الصورة الزائفة التي عاش الإنسان بينها. قد يخدع الناس زمناً، لكنه لا يستطيع أن يخدع الله، ولا أن يحمل القناع معه إلى الآخرة.
﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ۖ﴾

تأمل كلمة ﴿يَحِلُّ﴾؛ كأن العذاب نازلٌ بساحته بعد أن كان يحذر منه. ثم هو مقيم؛ لا يزور ثم يرحل، بل يستقر.

ثم يذكر الله نبيه ﷺ بحقيقة مهمته:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾

﴿أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ﴾.

نزل على النبي ﷺ، لكنه للناس. حملة فرد ليبلغ العالم، وتلقاه قلب أمين ليكون نوراً لكل قلب يريد الهداية.

﴿بِالْحَقِّ﴾.

تعود الكلمة التي بدأت بها السورة، لتؤكد أن هذا الكتاب لا يتبع رغبات البشر، بل جاء ليعرض عليهم الحقيقة كما هي.

ثم تقرر الآية مسؤولية الاختيار:

﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾.

الله غني عن هدايتك، والرسول ﷺ لا ينتفع بطاعتك منفعة شخصية؛ إنما تهتدي لنفسك. كل صلاة تحمي بها روحك، وكل معصية تتركها تنقذ بها قلبك، وكل حق تقبله تبني به مصيرك.

﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾.

لا يضر الضال الله، بل يعود ضلاله على نفسه. هو الذي يحمل ظلمة الاختيار، وهو الذي يمضي بعاقبته إلى الحساب.

ثم يخفف الله عن رسوله ﷺ:

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾.

لست مكلفاً أن تكره القلوب على الإيمان، ولا أن تتولى حساب الناس. عليك البلاغ والبيان والقدوة والصبر، أما سرائرهم ومآلاتهم فإلى الله.

وهذا يحذر صاحب الدعوة من نوعين من الآفات: اليأس حين يعرض الناس، والطغيان حين يتخيل أنه يملك حق السيطرة على قلوبهم.

الرسالة نورٌ يعرض، لا قيدٌ يُشدُّ إلى أعناق الناس. والحق واضح، لكن الإنسان هو الذي يقرر: أيستقبل النور أم يغلق النافذة؟

إشراقه المحطة

في هذه الآيات معركة تجريان في القلب:

معركة بين الصدق والكذب. ومعركة بين الخوف من الخلق والثقة بكفاية الخالق.

فمن صدق بالحق وتلقى هدى الله، عرف أن الله يكفي عبده، وأن الضر لا يكشفه إلا هو، والرحمة لا يمسكها أحدٌ دونه. عندها تخرج من أعماقه، لا من لسانه وحده:
حسي الله.

لكن هذه الكلمة تمتحن نفسها حين تخاف، لا حين تأمن؛ حين تغلق الأبواب، لا حين تتسع؛ حين يخبرك الناس أن قوتهم قادرةٌ عليك، فتتذكر أن قوتهم كلها واقفةٌ تحت إرادة الله.
فاسأل قلبك:

هل أقبل الحق إذا جاءني ممن أخالفه، أم أنني لا أراه حقًّا إلا إذا وافقني؟ هل أخاف من المخلوق حتى أعصي الخالق من أجله؟ هل أتعامل مع الأسباب، أم أعبدُها في خفاء قلبي؟ إذا تأخر الفرج، فهل تبقى كفاية الله يقيناً عندي؟ وهل أستطيع أن أقول: حسي الله، ثم أمضي في واجبي هادئاً دون أن أستجدي الأمان من الخلق؟

إن من كفاه الله لا تضره قلة الناصرين، ومن لم يكفه الله لن تغنيه الأرض كلها ولو ازدحمت حوله بالأعوان.

أرواحٌ تُقبَضُ في الليل، وقلوبٌ تضيق حين يُذكر الله وحده

الآيات: (٤٢-٥٢)

بعد أن قررت السورة أن الرسول ﷺ مبلغٌ للحق وليس وكيلًا على القلوب، تنتقل بنا إلى السر الذي لا يملكه رسول ولا ملك ولا مخلوق: سر الروح حين يأخذها الله، ثم يردّ بعضها إلى الحياة، ويمسك بعضها في عالم الموت.

وهنا تضع السورة الإنسان أمام تجربة يمر بها كل ليلة، لكنه قلبًا يراها بحقيقتها. إن النوم الذي نظنه استراحةً عادية صورة مصغرة للموت، والاستيقاظ بعثٌ صغير يتكرر كل صباح؛ لعل الإنسان يتذكر البعث الكبير.

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تُمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمَسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

تبدأ الآية باسم الجلالة:

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ﴾.

وحده الله هو المتصرف في هذا السر. قد يقع الموت بسبب مرض أو حادث، وقد تعدد الصور التي تسبقه، لكن الأسباب ليست صاحبة القرار الأخير. إنها أبواب يمر منها الأجل حين يأذن الله، أما المتوفى على الحقيقة فهو الله.

والتوفي هو الأخذ كاملاً. فالنفس ليست هباءً يضيع، ولا شعلةً تنطفئ إلى العدم؛ إنها تُقبض وتنتقل من دار إلى دار. الموت ليس فناءً للإنسان، بل انكشافٌ لمرحلة كانت محجوبة عنه.

ثم تجمع الآية بين نوعين من التوفي:

﴿حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تُمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾.

في كل ليلة نسلم أنفسنا إلى الله ونحن لا نشعر. نغلق أعيننا، وتسقط قدرتنا على مراقبة العالم، وتفصل إرادتنا الواعية عن كثير مما حولنا. لا نستطيع أن نضمن النفس التالي، ولا أن نأمر القلب أن يبقى نابضًا، ولا أن نقرر وحدنا أن نعود إلى الصباح.

ما أضعف الإنسان حين ينام! يترك جسده ساكنًا، وروحه تحت سلطان الله، ثم يستيقظ فيظن أن الصباح حقٌّ مكتسب، لا منحة جديدة.

النوم إعلان يومي بأن حياتك ليست في يدك. فأنت تغيب عن نفسك، لكن الله لا يغيب عنك. تتوقف حراستك، وتبقى رعايته. تمام عن أعضائك، ولا ينام ربك عن تديرها.

ثم تقع القسمة التي لا يراها أهل البيوت:

﴿فِيْمَسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْآخَرَىٰ﴾.

كم من أناس ناموا في ليلة واحدة؛ فأمسك الله أرواح بعضهم، وردّ بعضهم إلى الحياة. كان الفراش واحداً، والليل واحداً، لكن الأجل مختلف. هذا فتح عينيه على الصباح، وذاك فُتح له باب البرزخ.

﴿يُمَسِّكُ﴾ و﴿يُرْسِلُ﴾: كلمتان تختصران مصائر البشر عند كل فجر. روح انتهت مدتها في الأرض، وروح أرسلت مرة أخرى لاستكمال ما بقي.

ولذلك فكل صباح رسالة: لقد أُعيدت إليك نفسك، لا لأنك انتهيت من الموت، بل لأن لك بقية من أجل. وما دام الله قد أرسلك، فقد أرسل معك فرصة جديدة: ذنبٌ ثوب منه، وحقٌّ تؤديه، وصلاةٌ تصلحها، وقلبٌ تجربه، وطريقٌ تعود فيه إلى ربك.

﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

الإرسال ليس مطلقاً، بل إلى موعد معلوم عند الله. لك عددٌ محدد من الصباحات لا تتجاوزه، وأنفاسٌ معدودة، وخطواتٌ مكتوبة النهاية. وكل يوم يمر لا يذهب من الزمن فحسب، بل يذهب بجزءٍ منك.

إننا لا نملك أعمارنا دفعةً واحدة؛ نتسلها أنفاساً، وكل نفس أمانة قد يكون آخر ما أرسل إلينا منها.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

لا ينتفع بهذه التجربة المتكررة إلا من يتفكر. فالغافل ينام ويستيقظ آلاف المرات دون أن يرى في ذلك شيئاً. أما المتفكر فيضع رأسه على وسادته كمن يسلم ودیعة، ويستقبل الصباح كمن عاد من حافة الغيب.

ليس المطلوب أن يعيش الإنسان مرعوباً من النوم، بل واعياً بنعمة الحياة، مستعداً للقاء الله، خفيفاً من حقوق العباد، نقيّاً من إصرار المعصية.

وبعد أن بينت الآية أن الأرواح كلها في قبضة الله، تسأل عن الذين يلجئون إلى غيره:

﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْلَمُونَ﴾

كيف يجعل الإنسان شفيعاً مستقلاً من لا يملك لنفسه شيئاً؟ وكيف يتعلق بخلقٍ روحه نفسها تُمسك وتُرسل بأمر الله؟

الشرك لا يقوم دائماً على إنكار الله، بل قد يقوم على سوء تصور العلاقة به؛ حين يظن الإنسان أن أحداً يستطيع أن يفرض على الله إرادته، أو يتصرف في ملكه استقلاً، أو يمنح النجاة لمن شاء دون إذن الله ورضاه.

ولهذا جاء الاستفهام كاشفاً للتناقض:

﴿أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ؟﴾

أَتتخذونهم شفعاء ولو كانوا عاجزين لا يملكون شيئاً، بل قد تكون المعبودات أصناماً لا تعقل دعاء عابديها أصلاً؟

إن من لا يملك لا يعطي، ومن لا يسمع لا يجيب، ومن كان عبداً لله لا يرتفع إلى رتبة الشريك. ثم ترد الآية التالية أصل القضية كلها إلى الله:

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾
﴿لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾.

لا تقع شفاعته إلا بإذنه، ولا يشفع أحدٌ إلا لمن ارتضى، فكلها ملك له بدءاً ونهاية. وإثبات الشفاعاة في موضعها الصحيح لا يناقض التوحيد؛ بل يقرره، لأنها لا تكون حقاً مستقلاً للشافع، وإنما كرامة يأذن الله بها.

الأنبياء والملائكة والصالحون عبادٌ مكرمون، ولا يملكون أن يتقدموا بين يدي الله إلا بإذنه. فمن أراد الشفاعاة فيطلب أسبابها من مالكتها: توحيداً وإيماناً وطاعةً واتباعاً، لا تعلقاً مستقلاً بالخلق. ثم تأتي الحجة:

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

إذا كان الملك كله له، فمن الذي يتصرف في ملكه دون إذنه؟ ومن الذي يملك أمامه قراراً مستقلاً؟

وفي الدنيا قد يتوسط إنسان عند حاكم لأن الحاكم لا يعلم كل شيء، أو يخشى ذا نفوذ، أو يحتاج إلى من يتوسط. أما الله فعليه محيط، وملكه كامل، وعدله مطلق، وغناه لا تحدّه حاجة؛ فلا تقاس الشفاعاة عنده على وساطات البشر.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

الذي يتوفاكم كل ليلة، والذي يملك الشفاعة، هو الذي ترجعون إليه. فليكن قلبكم متجهًا إليه قبل الرجوع، ولتكن صلتكم به مباشرة قائمة على العبودية والمحبة والرجاء.

ثم تصف السورة مرضًا دقيقًا في القلوب:

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾

لم تقل الآية: إذا ذكر الله اشْمَأَزُوا، بل قالت:

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾.

المشكلة في وحده. قد يقبلون ذكر الله إذا شاركته في القلب أسماء أخرى، وإذا بقيت أندادهم محفوظة، وإذا لم يهدم التوحيد مصالحتهم وأوهامهم. أما أن يكون الله وحده صاحب العبادة والدعاء والتوكل، فهذا تضيق صدورهم.

﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

الاشمئزاز انقباض ونفور. إنها صورة قلب لا يحتمل صفاء التوحيد؛ لأن التوحيد ينتزع منه سلطانه الوهمي، ويحرره من رموزه التي اعتاد التعلق بها، ويضعه بلا حجب أمام الله.

وفي المقابل:

﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

يسرون بذكر من تعلقوا بهم، وتفتتح أسرارهم لما يوافق شرهم. وكأن معيار الحب انقلب في القلب: يضيق باسم الخالق حين يُفرد، وينشرح بأسماء المخلوقين حين تُرفع فوق منزلتها. وهذه الآية مرآة دقيقة؛ فلكل إنسان أن ينظر في حركة قلبه: ما الاسم الذي يبعث فيه الطمأنينة الكبرى؟ إلى من يفزع أولاً حين يضيق؟ بمن يستبشر قلبه أكثر: بربه أم بأسبابه؟

وقد يتسرب شيء من هذا المرض إلى قلب يعلن التوحيد بلسانه، حين يأنس بالحديث عن الأشخاص أكثر من أنسه بالحديث عن الله، أو يضطرب إذا انقطعت الأسباب أكثر مما يضطرب إذا ضعفت صلته بربه.

إن التوحيد ليس أن تذكر اسم الله بين أسماء كثيرة، بل أن يكون هو المركز الذي تعود إليه الأسماء والأسباب كلها.

وأمام هذا الانحراف العميق لا يدخل النبي ﷺ في جدل لا ينتهي، بل يفوض الحكم إلى الله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمُ الْغَيْبِ الشَّهَادَةُ أَنَّكَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾.

حين تشابك الأقوال، وتصلب القلوب، ويعجز الحوار عن كسر العناد، يبقى باب الدعاء. يلجأ الرسول ﷺ إلى الله لا هروباً من الحقيقة، بل رداً للحكم إلى صاحبه.

﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

الفاطر هو المنشئ على غير مثال سابق. ومن ابتداء السماوات والأرض قادرٌ أن يكشف الحق، ويعيد الخلق، ويفصل بين المختلفين.

﴿عَالَمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾.

يعلم ما ظهر من الأقوال وما استتر وراءها من الدوافع. قد يتشابه كلام اثنين، لكن أحدهما يريد الحق والآخر يريد الانتصار لنفسه. الناس يسمعون العبارة، والله يرى القلب الذي دفعها.

كم من خصومة تبدو فكريةً في ظاهرها، وفي باطنها حقدٌ أو حسدٌ أو كبر! وكم من كلمة حق يراد بها باطل! ولا يفصل في ذلك كاملاً إلا عالم الغيب والشهادة.

﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾.

في هذه الجملة راحة للمؤمن؛ فليس عليه أن يحسم كل جدال في الدنيا، ولا أن يرى انتصار الحق كاملاً بعينه. قد يموت وفي الأرض أصواتٌ تشوه الحقيقة، لكن القضية لم تنته؛ فهناك حكم الله. إن تأخر انكشاف الحق لا يعني ضياعه، وإن انتشر الباطل لا يعني تحوله إلى حقيقة. سيأتي يوم تسقط فيه الدعايات كلها، ويقف المختلفون أمام من يعلم السر والعلن.

ثم ترسم السورة مقدار الفزع الذي يجعل الإنسان يبذل المستحيل ليفتدي نفسه:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾

﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾.

كل ثروات الأرض، وكل ذهبها ومدنها ومزارعها وممالكها، ثم مثل ذلك كله مرةً أخرى؛ يصبح عند الظالم رخيصاً في لحظة العذاب. يود لو يقدمه فداءً لنفسه.

والشيء الذي أفنى عمره في جمع بعضه، وقطع الأرحام من أجله، وظلم الناس في سبيله، يكشف فجأة أنه لا يساوي لحظة نجاة.

يا لعجب الإنسان! يبذل آخرته ليجمع شيئاً من الدنيا، ثم يتنى في الآخرة لو يملك الدنيا كلها ليشترى بها نجاته، فلا يقبل منه.

هذه الآية تعيد تسعير الأشياء. المال ليس مذموماً في ذاته، لكنه يصبح وهماً حين يظن صاحبه أنه قادر أن يحجيه من الله. وما لم يتحول المال إلى طاعةٍ قبل الموت، سيفقد قيمته عند الحاجة الكبرى.

ثم تأتي من أَرَهَبِ جمل القرآن:

﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾

ظهر لهم من أمر الله وعذابه ما لم يدخل في حسابهم.

كانوا يحسبون أشياء كثيرة: الأرباح والخسائر، المواقف والتحالفات، نظرات الناس ورضاهم، لكنهم لم يدخلوا الله في حسابهم حقاً. خططوا لكل مستقبل إلا المستقبل الذي يبدأ بعد الموت. وقد يأتي الإنسان يوم القيامة بحسنيات ظنها عظيمة، فيجد أن الرياء أكلها. وقد يلقي كلماتٍ نسيها، فإذا هي أوزارٌ ثقيلة. وقد يرى مظالم كان يسميها ذكاءً أو سياسةً أو حقاً شخصياً، فإذا هي واقفة تنتظر القصاص.

إن الخطر ليس فيما يخشاه الإنسان فقط، بل فيما لا يحتسبه؛ في زوايا النفس التي لم يحاسبها، وفي العادات التي استصغرها، وفي النيات التي أخفاها حتى عن وعيه. ولهذا يحتاج المؤمن دائماً أن يسأل الله حسن الخاتمة والعفو، وألا يغتر بظاهر عمله؛ فالعبرة بما يظهر عند الله، لا بما يبدو للناس.

ثم تفصل الآية التالية هذا الانكشاف:

﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾.

كانت السيئات في الدنيا مستترّة خلف الأعذار والأسماء المزيّنة. يسمّي البخل حرصاً، والجبن حكمة، والرياء دعوة، والعدوان قوة، والكبر كرامة، واتباع الهوى حرية. أما في الآخرة فتُنزَعُ الأسماء، وتظهر حقيقة الفعل.

قد ينسى الإنسان سيئاته، لكنها لا تنساه. تظل محفوظةً حتى يراها، إلا أن يتداركها بتوبةٍ تحوها. وهذه رحمة التوبة: أن تجعل ما كان ينتظرك يوم القيامة يُمحي قبل أن تلقاه.

﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾.

أحاط بهم من كل جانب؛ فلا مهرب ولا منفذ. وذلك الذي كانوا يسخرون منه صار الواقع الوحيد الذي يحيط بهم.

كانوا يستهزئون بالبعث، فبعثوا. ويستهزئون بالحساب، فحسبوا. ويستهزئون بالنار، فأحاطت بهم.

إن الاستهزاء لا يغير الحقيقة، بل يمنع صاحبه من الاستعداد لها.

ثم تعود السورة إلى نفس الإنسان المتقلبة:

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

يتكرر مشهد الضر والنعمة، لكن السورة تكشف هنا مرضاً إضافياً: ادعاء الاستحقاق.

في الضر:

﴿دَعَانَا﴾.

وحّد جهة الدعاء؛ لأنه أدرك فقره. لكن بعد النعمة قال:

﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

أنا حصلت عليه بعلمي، وخبرتي، وقدرتي، وحسن تدييري. يُخرج الله عبده من المحنة، ثم تقف الأنا أمام النعمة لتجذب المنعم.

ليس الخطأ أن يعترف الإنسان بعلمه وجهده، فهما من الأسباب التي أمر الله بها. الخطأ أن يراها مستقلين، وأن ينسى من وهبه العقل والفرصة والقدرة والظروف، ومن أبقى الأسباب متماسكة حتى أثمرت.

كم من عالم لم ينفعه علمه، وذكيّ خانته تدييره، وقويّ سلبه مرض قدرته! فلو كان النجاح ثمره العلم وحده، لنجح كل عالم، ولو كان المال نتيجة الذكاء وحده، لما افتقر ذكي.

إن وراء الأسباب إذناً إلهياً، ووراء السعي توفيقاً، ووراء الثمرة فضلاً.

ولهذا صححت الآية وهمه:

﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾.

النعمة امتحان، لا شهادة تفوق مطلقة. ليست كل عطية علامة رضا، فقد يعطي الله ليرى: أيشكر العبد أم يكفر؟ أستخدم النعمة في الخير أم يحولها إلى سورٍ يعزله عن الله؟

قد يكون الفقر فتنة، وقد يكون الغنى أشد فتنة. الفقير يعرف في الغالب أنه محتاج، أما الغني فقد توهمه النعمة أنه مستغن. والألم يكسر الأنا، بينما النجاح قد يطعمها حتى تتضخم.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

يرون النعمة في حجمها المادي، ولا يرون سؤالها الأخروي. يفرحون بما دخل أيديهم، ولا يسألون ماذا فعل بدينهم.

وهذا الادعاء ليس جديداً:

﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

قالها قارون، وقالها كل من نسب الفضل إلى ذاته وقطع النعمة عن مصدرها. تتغير الأزمنة، لكن غرور الإنسان يكرر جملة القديمة.

﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

لم تحمهم قدراتهم حين جاء أمر الله. المال الذي عدّوه حصناً لم يتحول إلى يدٍ تنقذهم، والعلم الذي تعالوا به لم يدهم على مخرج.

كل ما لا يغني عن الإنسان عند لقاء الله ينبغي ألا يمنحه قلبه أكثر من جمعه.

ثم ظهرت ثمرة كسبهم:

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾

السيئة هنا ليست فعلاً انتهى، بل كأنها سهمٌ سيرجع إلى صاحبه. أطلقها في الحياة، ثم دارت الأيام فعادت تصيبه.

إن المعصية تحمل عقوبتها في داخلها، وإن تأخرت. والظلم يصنع نهايته منذ اللحظة الأولى، ولو بدا الظالم ناجحاً.

﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.

لن يهروا من سلطان الله، ولن يجدوا مكاناً خارج ملكه، ولن تصبح قوتهم أكبر من قدرته. قد يعجز البشر عن الوصول إلى الظالم، لكن الله لا يعجزه أحد.

ثم تهدم السورة وهماً آخر:

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾؛ فيوسعه. ﴿وَيَقْدِرُ﴾؛ أي يضيقه بحكمة.

ليست سعة الرزق دليل كرامة مطلقة، ولا ضيقه دليل هوان. لو كان الغنى علامة الرضا دائماً، لما أُعطي الكافر، ولو كان الفقر علامة السخط دائماً، لما ابتلي به الأنبياء والصالحون.

الرزق توزيع ابتلاء، لا ترتيب قيمة. قد يبسطه الله لعبدٍ ليختبر شكره، ويضيقه على آخر ليظهر قلبه أو يحججه أو يرفعه بالصبر. وقد يكون المنع عين العطاء، لكن الإنسان لا يرى إلا الشيء الذي فقده، ولا يرى الشر الذي صُرف عنه بفقده.

الإيمان يجعل الإنسان يقرأ الرزق من جهة الحكمة، لا من جهة الكمية فقط. يسعى ويطلب الحلال، لكنه لا يقيس منزلته عند الله برقم في يده.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

المؤمن يرى في اختلاف الأرزاق يد المربي، فلا يحسد من بُسْط له، ولا يحتقر من قُدر عليه، ولا يتكبر بنعمة، ولا ييأس من ضيق.

يعلم أن الله لم ينسه حين منع، ولم يمنحه حين أعطى عقد ملكية أبدية. كل شيء عارية، وكل رزق سؤال، وكل حال ممر.

إشراقة المحطة

تبدأ هذه المحطة بروج معلقة بين الإمساك والإرسال، وتنتهي برزقٍ معلق بين البسط والتقدير.

روحك بيد الله، ورزقك بيد الله، والشفاعة بيده، والضر والرحمة بيده، والحكم بين المختلفين إليه. فما الذي بقي للقلب حتى يعلقه بغيره؟

ومع ذلك، فإن مرض الإنسان أنه يعرف الله في ساعة الضر، ثم ينسب الفضل إلى نفسه في ساعة العافية. يستغيث بالله حين تسقط قدرته، فإذا أقامه الله قال: إنما أوتيته على علم.

فتأتي السورة لترد النعمة إلى حقيقتها:

﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾.

صحتك فتنة، وعلمك فتنة، وقلبك فتنة، وتأثيرك في الناس فتنة، ومحبة الخلق لك فتنة. والسؤال ليس: ماذا أعطاك الله؟ بل: ماذا صنعت بما أعطاك؟

وقبل أن تنام الليلة، اسأل نفسك:

إذا أمسك الله روحي، فما آخر عملٍ صعد مني؟ وهل في عنقي حقٌ أخشى أن ألقى الله به؟ وهل يضيق قلبي حين يكون الحديث عن الله وحده، بلا أسماء تنافس حضوره؟ وهل أرى نجاحي ثمرة ذكائي وحده، أم أرى وراءه فضل الله؟ وهل حملتني النعمة على الشكر، أم صنعت بيني وبين المنعم حجاباً؟

كل نوم موتٌ صغير، وكل يقظة بعثٌ صغير، وبينهما يقول الله لك في صمت الصباح: أرسلتك مرةً أخرى، فإذا أنت صانعٌ بما بقي؟

النداء الذي يفتح أبواب السماء للمُسرفين

الآيات: (٥٣-٦١)

هنا تبلغ سورة الزمر واحدةً من أرقِّ ذُرَاهَا وأعظمها رجاءً.

بعد أن حدَّثتنا عن الأرواح التي يمسكها الله، والظالمين الذين لو ملكوا الأرض ومثلها معها لافتدوا بها، والسيئات التي تظهر لأصحابها يوم القيامة؛ قد يظن المذنب أن الطريق قد أغلق، وأن الحديث عن الحساب لم يترك له إلا الخوف.

لكن القرآن لا يفتح نافذة النار ليقذفك في اليأس؛ بل ليدفعك إلى باب الله قبل فوات الأوان. وحين يبلغ الخوف مداه، ينزل نداء الرحمة كالمنطر على أرضٍ احترقت من الندم.

إنها الآية التي لو سمعها مذنَّبٌ بقلبه لأحس أن الله يخاطبه وحده، ويمد إليه من وراء ركام خطاياهِ حبلاً من النور:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

قبل أن تتأمل الوعد، قف طويلاً عند النداء:

﴿يَا عِبَادِيَ﴾.

لم يقل: يا أيها العصاة، ولا يا أيها المجرمون، ولا يا من لوئتم صحائفكم. مع أن كل ذلك قد وقع منهم، ناداهم بنسبة العبودية إليه: عبادي.

يا لهذا اللطف الذي يأتي قبل المغفرة! لم يغفر لهم بعد، ولم يعلنوا توبتهم بعد، ومع ذلك لم يطردهم من إضافة التشريف. كأن الله يقول: مهما ابتعدتم، لم تخرجوا من ملكي؛ ومهما عصيتم، فلا تجعلوا معصيتكم تقطع رجاءكم في ربوبيتي ورحمتي.

إن العاصي قد يستحي أن ينسب نفسه إلى الله، لكن الله يفتح له الباب بهذه النسبة: أنت عبادي وإن أثقلت الذنوب؛ فارجع إليّ، ولا تجعل الشيطان يسلبك بعد الطاعة شرف الرجوع.

ثم لم يقل: يا عبادي الذين أخطؤوا، بل:

﴿الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾.

والإسراف هو مجاوزة الحد. إنهم لم يقعوا في زلةٍ عابرةٍ فقط، بل بالغوا، وكرروا، وتجاوزوا، وأسرفوا. وربما أنفقوا سنواتٍ من أعمارهم في غير ما خُلِقوا له، واستهلكوا فطرتهم في الشهوات، وبددوا نقاء أرواحهم في طرقٍ يعرفون أنها لا ترضي الله.

ومع ذلك وصل إليهم النداء.

كأن الآية تُعتمد أن تأتي بأثقل وصفٍ للذنب، ثم تضع فوقه أوسع وصفٍ للرحمة؛ لئلا يظن صاحب كبيرةٍ أو ماضيٍ طويل أن الخطاب موجّه إلى من هو أقل ذنباً منه. أنت الذي أسرفت، أنت المقصود. أنت الذي عدت إلى الذنب بعد التوبة، لا تُغلق الباب. أنت الذي نخجل من تاريخك، لا تجعل نخجلك حجاباً بينك وبين الله. أنت الذي تظن أن صفحتك اسودّت كلها، إن الذي خلق الصحيفة قادر أن يبدل سوادها نوراً.

ثم تكشف الآية حقيقة الجريمة:

﴿أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾.

لم يضرُوا الله، بل ظلموا أنفسهم. كل معصية يظن الإنسان أنها حريةٌ من التكليف هي في الحقيقة عدوانٌ على روجه. كل شهوة محرمة ليست انتصاراً للنفس، بل جرحٌ فيها. وكل طاعة تركها لم تنقص من ملك الله شيئاً، لكنها أنقصت من نور قلبه. فالخطاب لا يقول: أسرفوا على حدودي فقط، بل على أنفسهم؛ ليوظف في العاصي الرحمة بنفسه. كَفَّ عن إيذاء هذه النفس التي سترافقت إلى الأبد. لا تسلبها للشهوة ساعةً ثم تركها تحمل الحسرة طويلاً.

ثم يأتي النهي الأعظم:

﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾

لم يقل: لا تحزنوا على ذنوبكم؛ فالحزن الذي يقود إلى التوبة حياة. ولم يقل: لا تخافوا؛ فالخوف الذي يردع القلب هداية. إنما نهى عن القنوط؛ ذلك اليأس الذي يصور للعبد أن رحمة الله أضيق من ذنبه.

القنوط ليس تواضعاً، بل سوء معرفة بالله. فحين تقول: لا يمكن أن يغفر الله لي، فكأنك تجعل معصيتك أعظم من مغفرته، وضعفك أقوى من رحمته، وماضيك أوسع من عفوهِ. ومن أنت حتى تُحدّد حدود الرحمة التي قال صاحبها: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾؟ قد يقول المذنب: أنا لا أستحق المغفرة. وهذا صحيح؛ فالمغفرة لا تُعطى دائماً على قدر استحقاقك، بل على قدر كرم الله. ولو كان العفو لا ينزل إلا على من لم يذنب، فمن الذي يحتاج إليه؟

إن الشيطان له بابان إلى الإنسان: قبل الذنب يهونه، وبعد الذنب يعظمه. يقول له قبل المعصية: الله غفور، فلا تخف. فإذا وقع قال: ذنبك لا يُغفر، فلا ترجع. فهو يستعمل الرجاء ليدفعه إلى السقوط، ثم يستعمل اليأس لينعه من النهوض. أما القرآن فيضع الخوف والرجاء في موضعهما: خوفاً قبل أن تعصي، وفتح لك الرحمة بعد أن تسقط، لئلا تتمادى، ولئلا تيأس.

ثم يأتي الوعد الذي لا يستطيع القلب أن يحيط بسعته:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾

الذنوب: بكل أصنافها وأشكالها. جميعاً: لا تترك الآلة ذنباً خارج باب التوبة. إنها مغفرة الذنوب جميعاً لمن رجع إلى الله تائباً قبل حضور الموت. فليس في الآلة دعوة إلى الأمن مع الإصرار، بل فتح لباب التوبة مهما عظم الماضي. ومن مات على الشرك دون توبة فذلك الذي أخبر الله أنه لا يغفره؛ أما من تاب، فإن التوبة تهدم ما قبلها.

القاتل يجد الباب. والزاني يجد الباب. والظالم يجد الباب، إذا رد المظالم وتحلل من الحقوق. والذي ضيع الصلاة يجد الباب، إذا صدق في العودة. والذي طال شروده يجد الباب، ما دام قلبه ينبض ولسانه يستطيع أن يقول: يا رب.

لا توجد في الطريق إلى الله لافتة تقول: الدخول للصالحين وحدهم. بل إن الصالحين إنما صاروا صالحين لأنهم دخلوا من باب الافتقار والتوبة، ولم يركنوا إلى أعمالهم.

ثم تختم الآية باسمين يضمنان قلب المذنب:

﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

الغفور: كثير المغفرة، يستر الذنب ويحوه ولا يفضح عبده به إذا صدقت توبته.

الرحيم: لا يكتفي بأن يحو آثار الماضي، بل يرحم العبد في مستقبل طريقه، ويعينه على التغيير، ويبدل سيئاته حسنات، ويقربه بعد أن كان بعيداً.

قد يعفو إنسان عنك، لكنه يقيك بعيداً عنه. أما الله فيغفر لك، ثم يفتح لك مقام القرب. وقد تصير الدمعة التي بكيها على الذنب أحب إلى الله من طاعة أو ثرك عجباً.

إن التائب لا يعود إلى نقطة الصفر، بل قد يعود بقلب أكثر معرفةً بضعفه، وأشد افتقاراً إلى ربه، وأرحم بالناس؛ لأن من عرف مرارة السقوط لا يتكبر على الساقطين.

لكن سورة الزمر لا تجعل الرجاء أمنيةً باردة. فبعد أن فتحت باب المغفرة، أمرت بالدخول منه:

﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلَبُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾

لا يكفي أن تقول: رحمة الله واسعة، ثم تواصل السير بعيداً عنها.
﴿وَأَنِيبُوا﴾.

عودوا بقلوبكم. غيروا الاتجاه. فالإنابة ليست دمةً عابرةً مع بقاء الطريق نفسه، بل رجوع الروح إلى ربها.

قد يحزن الإنسان على آثار الذنب لا على الذنب: يحزن لانكشافه، أو لفقد سمعته، أو لنتيجة أضرته. أما التوبة فهي أن يحزن لأنه ابتعد عن الله، ولو لم يره أحد ولم يلحقه من الناس لوم.
﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾.

إلى ربكم، لا إلى سجانٍ ينتظر زلتكم. إلى الذي ربّاكم بالنعمة، وستركم في المعصية، وأمهلكم، ثم أرسل إليكم نداء المغفرة.

والإنابة حركة قلب، ثم يأتي بعدها استسلام الحياة:
﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾.

سلّموا وجوهكم، وإرادتكم، وأعمالكم. لا تجعلوا التوبة شعوراً روحياً لا يغير السلوك. التائب حقاً يعيد ترتيب صلاته، وماله، وعلاقاته، وخلواته، وحقوق الناس عليه.

فإن كانت المعصية حقاً لله، أقلع عنها وندم وعزم على عدم العودة. وإن تعلقت بحقوق العباد، لم تكف دمةً في جوف الليل حتى يرد الحق أو يطلب العفو ممن ظلمه.

ليس من صدق التوبة أن تطلب من الله أن يغفر لك ظلم إنسانٍ وأنت قادرٌ على إنصافه ثم لا تفعل. ثم تأتي الكلمة التي تجعل التوبة سباقاً مع الزمن:

﴿مِنْ قَبْلٍ﴾.

هذه هي اللحظة الحاسمة. للرحمة بابٌ واسع، لكن لعمر الإنسان أجلاً. التوبة مقبولة قبل مجيء العذاب وقبل بلوغ الروح الحلقوم، أما بعد أن تتحول الغيبات إلى مشاهدةٍ فلا يبقى للاختيار معناه الأول.

التسوية أخطر من الذنب أحياناً، لأن المذنب قد يتوب، أما المسوّف فيراهن على زمنٍ لا يملكه. يقول: غداً، ولا يعلم هل سيرسل الله روحه إلى الغد أم يمسخها هذه الليلة.

﴿ثُمَّ لَا تَصُورُونَ﴾.

حين يأتي العذاب لن يستطيع أحد أن ينقذكم. لا مال، ولا جاه، ولا قريب، ولا شفيع بغير إذن الله. فالوقت الذي تستطيع فيه أن تنقذ نفسك هو الآن، بالإنابة والإسلام.

ثم تُرشد الآيات إلى زاد الطريق بعد التوبة:

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾

التوبة ليست خروجاً من الماضي فقط، بل دخولٌ في هداية الوحي.

﴿وَاتَّبِعُوا﴾.

لم يقل: اقرأوا فقط، أو استحسنوا، أو تأثروا؛ بل اتبعوا. اجعلوا القرآن أمامكم وامشوا خلفه. لا تطلبوا منه أن يسير وراء رغباتكم، بل اعيدوا تشكيل الرغبات على هداية.

﴿أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾.

أي اتبعوا هذا القرآن الذي وصفه قبل قليل بأنه أحسن الحديث، وخذوا بأوامره، واجتنبوا نواهيه، وتعلقوا بما فتحه من الرحمة والإحسان والعزم.

وقد يحمل التعبير دعوةً إلى ارتقاء النفس من مجرد المقبول إلى الأكل: فإذا دعاك الوحي إلى العدل فلا تقف دون الإحسان، وإذا فتح لك باب العفو فلا تجعل الانتصار للنفس غايتك، وإذا أمرك بالقول الحسن فاطلب أحسن القول.

﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

القرآن ليس تعليمات باردة؛ إنه خطاب الرب الذي يعرف مواضع ضعفك، وما يحبيك، وما يفسدك. وحين يأمرُك بشيء، فهو يريـك به، لا يثقل عليك عبثاً.

ثم يتكرر التحذير:

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً﴾.

الموت لا يرسل إلى أكثر الناس موعداً معلناً. يدخل فجأةً بين جملتين، أو في طريق، أو في نوم، أو بعد خطة طويلة للغد.

﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

قد يكون الإنسان في تمام صحته، ويرتب لشهور قادمة، ويظن أن الموت موضوعٌ يخص كبار السن والمرضى، فإذا أجله أقرب إليه من مشروعه التالي.

لا يريد القرآن أن يحرمك من التخطيط، بل أن يمنعك من تأجيل الله إلى نهاية الخطط.

ثم تفتح السورة نافذةً على النفس بعد فوات الفرصة، لتسمع ندمها قبل أن يصبح ندمك:

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّآخِرِينَ﴾

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ﴾.

لم يحدد اسمها؛ لأن كل نفس معرضة أن تكون صاحبة هذا القول. إنها أنا وأنت، إن مررنا ببدء التوبة ولم ندخل.

﴿يَا حَسْرَتِي﴾.

ليست حسرةً عادية، بل نداءٌ كأن النفس تستدعي حسرتها من شدة ما تجده. يا حسرتي، هذا وقتك، احضري؛ فلم يبق لي إلا أنت!

الحسرة أُلْم على شيء كان ممكناً ثم ضاع. ولهذا هي أشد من ألم الفقد المجرد. صاحبها لا يقول: لم أستطع، بل يقول:

﴿عَلَى مَا فَرَّطْتُ﴾.

كانت الفرصة في يدي. مرت عليّ الأيام، وسمعت الآيات، وطرق النداء قلبي، وفتح الله لي باب الرجوع، لكنني ضيعت.

والتفريط هو التقصير مع القدرة. لم يُطلب منه ما لا يستطيع، بل فرط فيما كان بين يديه: ركعةٌ كان يستطيعها، وتوبةٌ كان يمكن أن ينطق بها، وحقٌ كان قادراً أن يرده، وذنبٌ كان يستطيع أن يتركه، وعمرٌ كان يمكن أن يمتلئ بالنور.

﴿فِي جَنبِ اللَّهِ﴾.

أي فيما يتصل بحق الله وطاعته وقربه. ويا له من تعبير يكشف حجم الخسارة! لم يقل: فيما فرطت في بعض الأعمال، بل في جنب الله؛ في الطريق الذي يؤدي إلى رضاه.

ما الذي يستحق أن يُضحى من أجله بالقرب من الله؟ أهى شهوة انتهت وبقي أثرها؟ أم كلمة مديح من بشر مات أو نسي؟ أم مالٌ انتقل إلى غيرك؟ أم خصومةٌ انتصرت فيها لنفسك وخسرت قلبك؟ ثم تعترف النفس بسببٍ من أسباب هلاكها:

﴿وَإِنْ كُنْتُ لِمِنَ السَّاجِدِينَ﴾.

كانت تسخر من أهل الطاعة، أو من آيات الله، أو من الوعيد، أو من الدعوة إلى التوبة. سخرت لتخفي قلقها من الحقيقة، وجعلت المزاح سلاحاً تهرب به من جدية المصير.

كم من إنسان يضحك في الدنيا على ما سيبي عليه في الآخرة! وكم من مجلسٍ استُخف فيه بالحق، ثم انقلبت ضحكاته حسرات!

إن السخرية لا تهزم الفكرة، بل قد تكون إعلاناً عن عجز صاحبها عن مواجهتها. ثم تعرض السورة عذراً ثانياً:

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾

تحاول النفس أن تنقل مسؤوليتها إلى القدر: لو أن الله هداني!
لكن الله أرسل الرسل، وأنزل الكتاب، وضرب الأمثال، وفتح باب التوبة، ونهى عن القنوط،
وأمر بالإجابة. فكيف يقول من أعرض عن كل ذلك: لو هداني؟
إنه يريد هداية تلغي اختياره، وتجره إلى الطاعة قسراً. لكن التكليف قائم على أن تأتي الله بإرادتك،
وأن تطلب هداه وتطرق بابه.

الهداية هبة من الله، نعم؛ لكنها هبة يطلبها الصادق، يأخذ بأسبابها، ويجاهد هواه من أجلها. أما
من يحب العمى ثم يحتج بأن النور لم يدخل قلبه، فقد أغلق النافذة بيده.
كم مرة قلت في صلاتك: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؟ وهل كنت مستعداً أن تسير في الصراط إذا
ظهر لك، أم كنت تريد من الله أن يهديك إلى الطريق الذي يوافق رغبتك؟
ثم يظهر العذر الثالث عند مواجهة العذاب:

﴿أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

الآن لا تطلب النفس مجرد الهداية، بل تطلب العودة إلى الدنيا.
﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾.

أعيدوني مرة واحدة. لا أطلب عمراً طويلاً، بل فرصة. سأكون من المحسنين، لا من المطيعين
فخسب. سأصلح كل ما أفسدت، وأملأ ما ضيعت.
لكن العجيب أنها كانت في الدنيا تمنى أن يطول عمر اللهو، فإذا رأت العذاب تمت لحظة واحدة
للطاعة.

إن يوماً واحداً تعيشه الآن هو الأمنية المستحيلة لأهل القبور. والساعة التي تملأها قد يتنى الراحل لو
عاد إليها ليقول فيها: سبحان الله، أو يستغفر، أو يرد مظلمة.

لا تحتقر اللحظة التي بين يديك؛ فقد تكون هي «الكرة» التي ستتمناها إذا خرجت منها.
ثم يأتي الرد الإلهي الذي يهدم الأعذار:

﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تِلْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾

﴿بَلَىٰ﴾.

بلى، قد جاءك الهدى. لم تترك بلا دليل، ولم تغلق في وجهك الأبواب.
﴿قَدْ جَاءَ تِلْكَ آيَاتِي﴾.

جاءتك في القرآن، وفي الكون، وفي موت من حولك، وفي تقلب أحوالك، وفي ذلك الصوت الذي كان يوقظ ضميرك بعد الذنب.

لكن المشكلة لم تكن غياب الآيات:

﴿فَكَذَّبَتْ بِهَا وَاسْتَكْبَرَتْ﴾.

التكذيب موقف اللسان والعقل، والاستكبار موقف القلب. وقد يعرف الإنسان الحق في داخله، لكن كبره يمنعه أن يخضع له؛ لأنه يخشى أن يهدم الصورة التي بناها لنفسه. الاستكبار هو أن ترى الرجوع إلى الحق هزيمة، وأن تجد في الاعتراف بالخطأ انتقاصاً من ذاتك. لكن ما من انتصار أعظم من أن تنتصر على كبرك، وما من هزيمة أشد من أن تعرف الحق ثم ترفضه كي لا تقول: أخطأت.

ثم ترسم السورة وجوه الفريقين:

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾

في الدنيا يستطيع الإنسان أن يخفي سواد باطنه بابتسامة مصطنعة، وهيئة حسنة، وكلمات منمقة. أما يوم القيامة فتخرج حقائق القلوب إلى الوجوه.

﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾.

صار الباطن ظاهراً، وتحولت ظلمة الكذب إلى لونٍ يكسو الوجه. الوجه الذي طلب الرفعة بالكذب على الله نال سواد الخزي.

ثم يربط الله المصير بجذر الجريمة:

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

التكبر أصل كثير من الضلال. قد لا تنقص الإنسان الأدلة، لكنه لا يريد أن يكون عبداً. يريد أن يقبل من الدين ما يوافقه، ويرد ما يجرح سيادة نفسه.

الكبر ليس فقط أن نتعالى على الناس، بل أن نتعالى على الحق، وأن ترى أمرك فوق أمر الله، وذوقك فوق حكمه، وعقلك المحدود حاكماً على وحيه.

وفي مقابل الوجوه المسودة تأتي النجاة:

﴿وَيُخَيِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا مِمَّا زَيَّغَتْ عَنْهُمُ الْغُلُوبُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

﴿وَيُخَيِّئُ اللَّهُ﴾.

النجاة ليست اعتماداً على العمل وحده، بل فضلٌ من الله. التقوى سبب، لكن المنجي هو الله. وهذا يحفظ المتقي من العجب؛ فلا يرى نفسه صاحب حقٍّ على ربه، بل عبداً شملته الرحمة. ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾.

المفازة هي الفوز والنجاة. يصلون إلى المكان الذي فازوا فيه، أو ينجون بسبب فوزهم وتقواهم. لقد عبروا الخوف إلى الأمان، والامتحان إلى النتيجة، والطريق إلى المنزل. ﴿لَا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ﴾.

تأمل دقة التعبير: لا يمسهم. ليس فقط لا يغمرهم العذاب، بل لا يلامسهم أدنى سوء. انتهى زمن الألم كله: لا مرض، ولا خوف، ولا فراق، ولا تهديد، ولا خبر يفزع القلب. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

السوء ألمٌ مما يقع، والحزن ألمٌ على ما فات. وقد أمّتهم الله من الاثنين: لا شرٌّ حاضر يمسهم، ولا ماضٍ يثقل قلوبهم.

حتى ذنوبهم التي تابوا منها لا تبقى في الجنة سكاكين في الذاكرة؛ فقد دخلوا داراً لا حزن فيها. يحو الله تبعات الماضي، ويطهر الذاكرة من ألمها، فلا يبقى إلا حمد النجاة.

ما أعظم الفرق بين نفسٍ تقول: ﴿يَا حَسْرَتِي﴾، ونفسٍ يقال عنها: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾! الفارق بينهما لم يكن أن إحداها لم تذنّب؛ بل أن إحداها سمعت: ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾ فأنابت وأسلمت، والأخرى سمعت ثم سوفت حتى جاءها العذاب بغتة.

إشراقة المحطة

هذه المحطة ليست حديثاً عن رحمةٍ مجردة، بل إنقاذٌ عملي للإنسان من ماضيه. إن الله لا يقول لك: لم تذنّب. ولا يقول: ذنبك صغير. بل يقول: أسرفت على نفسك، ومع ذلك لا تقنط.

فالمغفرة لا تحتاج منك أن تتكبر قبح الماضي، بل أن تعترف به وتعود. والرحمة لا تعني أن الخطيئة لا تؤذي، بل أن الله قادرٌ أن يشفي ما أفسدته الخطيئة إذا صدقت الإنابة.

فلا تجعل ذنب الأمس يحرمك طاعة اليوم. ولا تقل: كيف أعود وقد عدت إلى المعصية مرات؟ عد إلى الله كلها أخذتكَ نفسك؛ فإن تكرار السقوط لا يبرر البقاء على الأرض.

وربما كان أخطر ما بينك وبين الله الآن ليس الذنب، بل التأجيل.

فاسأل نفسك:

ما الذنب الذي ما زلت أوّجل التوبة منه؟ هل هناك مظلمة لا تكفي فيها الاستغفار حتى أردّها؟
هل أخاف من مواجهة نفسي، فأستعمل اليأس عذراً للاستمرار؟ ولو قيل لي إن هذه ليلتي
الأخيرة، فما أول شيء سأصلحه؟ ولماذا لا أصلحه الآن؟

ثم قل بقلب منكسر:

يا رب، إنني لم آتِ لأنني أستحق، بل لأنك دعوتني. ولم أرجع لأن ذنبي صغير، بل لأن مغفرتك
عظيمة. وقد قلتَ وقولك الحق:

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾.

فها أنا يا رب قد سمعت النداء... وها أنا أعود.

لله مقاليد السماوات والأرض... وما قدروا الله حقَّ قدره

الآيات: (٦٢-٦٧)

بعد أن فتحت السورة باب الرحمة للمسرفين، وكشفت حسرة الذين أضاعوا فرصة الرجوع، تعيد القلب إلى أصل نجاته: معرفة الله.

فالتوبة ليست خوفاً من العقوبة فحسب، بل عودةً إلى الرب الذي خلق كل شيء، وملك كل شيء، وفتح خزائن كل شيء. والضلال في جوهره يبدأ من اختلال معرفة الإنسان بربه؛ حين يمنح المخلوقين في قلبه أكبر من أعجامهم، ويعامل الأسباب كأنها مستقلة، ويظن أنه قادرٌ أن يخرج من سلطان الله.

لذلك تصعد بنا الآيات من النفس المذنبة إلى ملكوت السماوات والأرض، ثم تبلغ بنا مشهداً ترتجف له الروح: الأرض جميعاً في قبضة الله يوم القيامة، والسماوات مطويات بيمينه.

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾

تبدأ الآية باسم الجلالة، ثم تأتي الحقيقة في جملة قصيرة لا تترك شيئاً خارجها:

﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

كل ما تقع عليه العين، وكل ما لا تدركه الحواس، وكل ما عرفه الإنسان وما لم يعرفه: خلقه الله.

خلق الذرة والمجرة، والنور والظلام، والإنسان والملك، والبحار والصحارى، والأسباب والنتائج، والأجساد وما أودع فيها من أسرار. لا يوجد في هذا الكون كائن يحمل في ذاته سر وجوده؛ كل شيء كان معدوماً، ثم أخرجه الله إلى الوجود.

وكلمة ﴿كُلِّ﴾ تقتلع من القلب جذور الشرك؛ لأن من كان مخلوقاً لا يكون إلهاً. كل ما سوى الله حادثٌ محتاج، محدودٌ بقدره، محكومٌ بسنن خالقه. فلا ملك، ولا نبي، ولا ولي، ولا جني، ولا كوكب، ولا قوة، ولا نظام؛ يملك من خصائص الربوبية شيئاً مستقلاً.

وإذا كان الله خالق كل شيء، فهو خالق قدرتك التي تغتر بها، وعقلك الذي تفاخر به، والفرصة التي نجحت من خلالها، والمواد التي صنعت منها إنجازك. فأين تقف «الأنا» لتقول: إنما أوتيته على علم عندي؟

ليس معنى ذلك إلغاء جهد الإنسان، بل وضعه في موضعه: أنت تعمل بما خلق الله فيك، وتتحرك في عالم خلقه، وتستعمل أسباباً أوجدها، وتبلغ نتيجة لا تقع إلا بإذنه. فما بقي بعد ذلك إلا أن يكون الحمد لله.

ثم تقول الآية:

﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

الوكيل هو القائم على الشيء بالحفظ والتدبير. لم يخلق الله الكون ثم يتركه، بل كل ذرة قائمة بتدبيره، وكل نفس محفوظ بأمره، وكل رزق جارٍ بتقديره. الكون لا يتحرك بقوة مستقلة عن الله لحظة واحدة. لو سلب عنه الإمداد الإلهي لما تأخر انهياره طرفة عين.

وهذه الحقيقة لا تمنح العقل معرفة فقط، بل تمنح القلب سكينة: إن ربك ليس خالق بدايتك ثم غائباً عن تفاصيلك؛ إنه وكيلٌ على كل شيء. يرى موضع ضعفك، ويعلم حاجتك قبل أن تنطق بها، ويدبر من خلف الحجب ما لا تستطيع أنت أن تراه.

فإذا وكلت أمرك إلى الله، لم توكله إلى من يجهل بعض القضية، أو يعجز عن بعض الحل، بل إلى خالق كل شيء، والوكيل على كل شيء.

ثم تأخذنا السورة إلى صورة الخزان والمفاتيح:

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

المقاليد هي المفاتيح والخزائن وما يكون به الفتح والتصرف. كلها له وحده. خزائن الرحمة، والرزق، والهداية، والنصر، والشفاء، والفرج، والموت والحياة؛ لا يفتحها إلا الله، ولا يغلقها أحدٌ إذا فتحها.

ما يراه الإنسان مغلقاً قد يكون مفتاحه كلمة من الله: كن.

وما يراه مستحيلاً ليس مستحيلاً على صاحب المقاليد. نحن نصف الأشياء بحسب حدود قدرتنا، فنقول: هذا بعيد، وهذا متعذر، وهذا لا يمكن. أما الله فلا نتعبه المسافات، ولا تعجزه العقدة، ولا يحتاج إلى المقدمات التي نحتاجها.

أخرج يونس من بطن الحوت، ويوسف من ظلمة الجب والسجن، وموسى من بين الماء وجند فرعون، وإبراهيم من النار. لم تكن النجاة في داخل حسابات البشر، لكنها كانت في خزائن الله.

وحين تعلم أن المقاليد له، لا تقف طويلاً عند باب الخلق بعد أن يغلقوه. خذ بالأسباب، لكن لا تذلل قلبك للمفتاح الوهمي في يد مخلوق. قد يملك إنسانٌ توقعاً، لكنه لا يملك أن يجعل التوقع خيراً لك. وقد يملك آخر دواءً، لكنه لا يملك أن يضع فيه الشفاء. وقد يملك ثالثٌ باب رزق، لكنه لا يملك خزائن الرزق.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

كيف لا يكونون خاسرين وقد انقطعوا عن صاحب المقاليد؟ طلبوا الغنى ممن لا يملك، والنجاة ممن لا يستطيع أن ينجي نفسه، واستبدلوا بخزائن الله أبواباً فقيرةً مثلهم. الخسارة ليست فقط أن تفقد ما في يدك، بل أن تقف في عالمٍ واسع وأنت معرضٌ عن صاحبه. وأن تحيا بين آيات الله ثم لا ترى الطريق إليه.

ثم يؤمر النبي ﷺ أن يواجه دعوة المساومة:

﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾

لقد كان المشركون يريدون من النبي ﷺ قدراً من التنازل: يعبد إلههم حيناً، ويعبدون إلهه حيناً، أو يلين في أصل التوحيد ليصنعوا منطقةً وسطى يتعايش فيها الحق مع الشرك.

لكن التوحيد لا يقبل القسمة.

﴿أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ؟﴾

كيف يطلب ممن عرف أن الله خالق كل شيء وصاحب مقاليد كل شيء أن يصرف شيئاً من العبادة لغيره؟

ليست القضية عناداً اجتماعياً، بل استحالة عقدية. العبادة حق الله، ولا يملك الرسول ﷺ ولا غيره أن يمنح حق الله لمخلوق.

ثم سماهم:

﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾.

قد يعرفون التجارة والأنساب ومصالح الدنيا، لكنهم جهلوا أعظم حقيقة: قدر الله وحقه. والجهل الحقيقي ليس أن تجهل وسيلةً من وسائل الحياة، بل أن تجهل الغاية التي من أجلها وجدت. قد يحمل الإنسان علماً واسعاً بالعالم، ثم يعبد حجراً أو هوى أو ذاتاً؛ فيكون قد عرف أطراف الأشياء وغاب عنه مركز الوجود.

وكم يتكرر طلب المساومة في حياة المؤمن! قد لا يقال له: اعبد صمًا، ولكن يقال له: احتفظ بإيمانك في قلبك، وتنازل عن بعض الحق لتُرضي الناس. أو ليكن الله أولاً في المسجد، أما في المال والسياسة والعلاقات فلتكن المصالح هي الإله الحاكم.

لكن «لا إله إلا الله» لا تقبل أن يكون لله جانبٌ من الإنسان ولللهوى جوانب أخرى. إنها تريد قلبه كله، وحياته كلها، وموازينه كلها.

ثم يأتي خطابٌ مهيب للنبي ﷺ، يتجاوز شخصه إلى كل من جاء بعده:

﴿وَلَقَدْ أَوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

الخطاب للنبي ﷺ، مع عصمة الله له من الشرك، ليبين للأمة جسامة القضية، وأن التوحيد ليس فضيلةً بين فضائل، بل الأساس الذي يقوم عليه العمل كله.

﴿وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾.

إنها كلمة الرسل جميعاً، من أول النبوة إلى خاتمها. اختلفت بعض الشرائع، وبقي أصل الرسالة واحداً: اعبدوا الله وحده.

﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾.

الشرك إذا مات الإنسان عليه يهدم أصل العمل؛ لأنه يفسد الجهة التي يتوجه إليها. قد يكون البناء عالياً جميلاً، لكن إذا انهار الأساس لم يبق له قيام.

فالعبادات ليست حركات مستقلةً عن العقيدة. قيمتها تأتي من كونها لله. فإذا صُرفت العبادة إلى غيره، أو دخل الشرك أصل الاعتقاد، ضاع المعنى الذي من أجله شُرت الأعمال.

وتخاطب الآية النبي ﷺ بهذا الأسلوب لتقطع وهم المحاباة: إن الميزان لا يتغير لأجل أحد. لا نسب، ولا منزلة، ولا تاريخ من الأعمال يجعل الشرك مقبولاً.

فإذا كان سيد ولد آدم ﷺ يُخاطب بهذا التحذير، فكيف يأمن غيره على توحيده؟

والحبوط صورة موجعة: عملٌ كثير، وتعبٌ طويل، ثم لا يجد صاحبه ثمرته؛ لأن قلبه أفسد الأصل. ولهذا كانت حماية التوحيد أعظم ما يحرس به الإنسان أعماله.

وقد يدخل على العمل نوعٌ من الشرك الأصغر كالرياء، فيفسد العمل الذي خالطه بقدره. يعمل العبد لله، ثم يلتفت قلبه إلى أعين الناس، فيمنحهم نصيباً من عبادته. ولهذا كان الصالحون يخافون على نياتهم أكثر من خوفهم على صور أعمالهم.

إن إخلاص العمل أشد من العمل نفسه؛ لأن الجوارح قد تبدأ الطاعة، ثم تأتي النفس في منتصفها تطلب ثناءً أو منزلةً أو تفوقاً على الآخرين.

ثم يأتي التصحيح الحاسم:
﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾
﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ﴾.

تقديم اسم الجلالة يفيد الاختصاص: الله وحده فاعبد. اقطع كل مساومة، واجمع وجهتك، وأخرج من قلبك من لا يستحق مقام العبودية.
إن العبادة هنا ليست مجرد ردٍّ على الشرك، بل عودة إلى النظام الصحيح للوجود: الخالق يُعبد، والمخلوق يعبد. الرب يأمر، والعبد يسلم. الله يُرجى، والأسباب تُستخدم.
ثم:

﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

كأن التوحيد نفسه نعمةٌ تحتاج إلى شكر. أن يعرف قلبك ربه، وألا يتوزع بين الآلهة الوهمية، وأن تسجد جبهتك للواحد؛ هذه أعظم منحة.
ولا يكون شكر التوحيد بكلمة الحمد وحدها، بل بحايته من كل ما يحدشه. شكر الله على الهداية بأن ثبت عليها، وعلى العبادة بأن تخلصها، وعلى النعمة بأن تستعملها في طاعته.
وتأمل الصلة بين العبادة والشكر: من عبد الله عرف أن النعم منه، ومن عرف أنها منه شكره، ومن شكره ازداد عبوديةً ومحبةً.
الشكر أن ترى في كل نعمة طريقاً إلى صاحبها، لا حجاباً عنه. فإذا قادتك النعمة إلى الغفلة كانت فتنة، وإذا قادتك إلى الحمد صارت عبادة.
ثم تأتي الآية التي ترتفع بالسورة إلى ذروة الجلال:
﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بَيْنَ يَدَيْهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

هذه هي علة الشرك والخوف من الخلق والاعتزاز بالدنيا:
﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

لو عرفوه حق المعرفة لما جعلوا له ندأ، ولما خافوا المخلوق تخوفهم منه، ولما عصوه طلباً لرضا بشر، ولما ظنوا أن سلطانه محدود بمحدود الأسباب.
كل معصية تحمل في أعماقها نقصاً في تقدير الله: إما غفلةً عن علمه، أو استهانةً بأمره، أو ضعف ثقةٍ بوعده، أو نسياناً لعظمته.

ومعرفة قدر الله لا تعني الإحاطة بذاته؛ فالله أجل وأعظم من أن يحيط به عقل مخلوق. إنما نعرفه بما عرّف به نفسه من أسمائه وصفاته وآياته، مع تنزيهه سبحانه عن مشابهة خلقه: ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

ثم تقرب الآية إلى أذهاننا مشهداً من عظمتها:

﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

الأرض جميعاً، لا مدينة ولا إقليم ولا قارة. هذه الأرض التي تنازع الناس على بقاعها، وسفكوا الدماء على حدودها، وبنوا فيها الإمبراطوريات، واختال ملوكها بأنهم يملكون أجزاء منها؛ تكون كلها يوم القيامة في قبضة الله.

نؤمن بما وصف الله به نفسه على الوجه اللائق بجلاله، من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تكييف؛ فصفاته سبحانه حق، ولا تشبه صفات المخلوقين.

ما أصغر الإنسان حين يتكبر على بقعة هي مع الأرض كلها تحت سلطان الله! وما أضعف الطاغية الذي يتوهم أنه أحكم قبضته على بلد، والأرض والبلد والقبضة وصاحبها جميعاً مملوكون لله! ثم يرتفع المشهد:

﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾.

السموات التي يعجز البصر عن إدراك أطرافها، والتي تتوزع فيها المجرات والنجوم على اتساع لا يحيط به الخيال؛ يطويها الله يوم القيامة كما يشاء، بقدرته وعظمته، على الوجه اللائق به سبحانه. إننا ننظر إلى السماء فنشعر بضآلة الأرض، ثم تأتي الآية لتقول إن هذه السماوات على عظمتها مخلوقة مقهورة تحت سلطان خالقها.

فأي قدرٍ لله استقر في قلب من يترك أمره خوفاً من بشر؟ وأي معرفةٍ بعظمته عند من يبيع رضاه من أجل وظيفة أو مدح أو شهوة؟ لو امتلأ القلب بهذا المشهد، لصغرت أمامه كل القوى التي تهدده. ليس لأنها لا تملك أذى مؤقتاً، بل لأنها نفسها لا تخرج عن قبضة الله.

ثم يأتي التنزيه:

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

تنزه الله عن كل شريك، وتعالى عن كل مثيل، وعن كل تصورٍ يقيسه على خلقه. ليس شيء من الموجودات ندّاً له، ولا تشبه عظمته عظمة عرفها البشر، ولا قدرته قدرة محدودة كقدراتهم. ﴿سُبْحَانَهُ﴾: تنزيهه عن النقص والمماثلة. ﴿وَتَعَالَى﴾: علوّه عن الشركاء والأشباه والأوهام.

وكان الآية بعدما عرضت مشهد الأرض والسموات تقول: كل صورةٍ عن الله تصنعها خيالات البشر قاصرة، فسبحانه أعظم وأجل، وليس كمثل شيء..

إشراقة المحطة

تضعك هذه الآيات بين حقيقتين:

أنت مخلوقٌ صغير، وربك خالق كل شيء.. وأنت فقيرٌ إلى مفتاح واحد، وربك له مقاليد السموات والأرض.

فما الذي يدفعك إلى الشرك الخفي بالخوف والرجاء؟ ولماذا تطرق أبواباً تعلم أن مفاتيحها نفسها بيد الله؟ ولماذا تخشى إنساناً يقف مع الأرض كلها في قبضة ربه؟

إن أكثر قلق الإنسان يأتي من أنه يقدر المشكلة، ولا يقدر الله حق قدره. يرى ضخامة الباب المغلق، وينسى صاحب المقاليد. يرى قوة الخصم، وينسى أن السموات مطويات بأمر الله. يرى ضعفه، ولا يرى الوكيل على كل شيء..

وحين يكبر الله في القلب، لا تختفي المصاعب، لكنها تفقد ألوهيتها. لا يعود الخوف سيئاً، ولا الرزق معبوداً، ولا الناس محكمةً نهائيةً، ولا الأسباب آلهةً صغيرة.

فاسأل نفسك:

هل الله في قلبي أعظم من الشيء الذي أخافه؟ هل أؤمن أن له المقاليد، ثم أعيش كأن مستقبلتي بيد البشر؟ هل أعبد الله خالصاً، أم أساوم على شيء من الحق إذا هددتني المصلحة؟ هل أشكر نعمة التوحيد بحراستها من الرياء والتعلق والخوف المذل؟ وهل قدرت الله حق قدره حين عصيته لأن مخلوقاً طلب مني ذلك؟

ثم ارفع قلبك من كل ما استعبده، وقل:

يا رب، أنت خالق كل شيء، والوكيل على كل شيء، ولك مقاليد كل شيء؛ فلا تكلمي إلى نفسي، ولا تجعل في قلبي خوفاً ولا رجاءً ولا خضوعاً ينازع حقك.

﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

حين يُنفخ في الصور، وتُساق الخليفة زُمرًا إلى المصير

الآيات: (٦٨-٧٥)

بلغنا الآن خاتمة السورة، والغاية التي كان كل مشهدٍ سابقٍ يمضي إليها.

لقد نزل الكتاب بالحق في أول السورة، ودُعي الإنسان إلى إخلاص الدين، ورأى تقلبه بين الضر والنعمة، وسمع نداء الرحمة للمسرفين، وعرف أن الله خالق كل شيء، وأن الأرض جميعاً قبضته والسموات مطويات بيمينه.

والآن تنتهي مدة الاختبار.

تُطوى صفحة الأرض التي تنازع الناس على سلطانها، وتقطع الأعمال التي ملأوا بها أعمارهم، ويسقط الفاصل بين الغيب والشهادة. لا يعود الموت خبراً نسمعه، ولا البعث عقيدة نستدل عليها، ولا الجنة والنار وصفاً نتلوهم؛ بل يصير كل شيء حاضراً أمام العين. وهنا تحقق السورة اسمها. البشر الذين اختلطوا في الدنيا سيمائزون، ثم يُساقون زُمرًا: زمرة إلى النار، وزمرة إلى الجنة.

ليس الفرز يوم القيامة وليد اللحظة؛ إنما تتكشف هناك الزمر التي كانت تتشكل في القلوب هنا. ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾.

جاء الفعل مبنيًا لما لم يُسمَّ فاعله؛ لأن هول الحدث يملأ المشهد، ولأن النافع إنما ينفخ بأمر الله. نفخة واحدة تنهي النظام الذي عرفه البشر، وتقطع الحركة التي ظنوها ثابتة.

كم ملأت الدنيا من أصوات! صخب الأسواق، وخطب الملوك، وضجيج الحروب، وصيحات المتكبرين. لكن نفخة الصور تطفئ الأصوات كلها، فلا يبقى لجبار أمر، ولا لجيش حركة، ولا لمدينة نبض.

﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾.

صعقة تعم عوالم الخلق كلها إلا من استثناه الله. ليس الموت يومئذٍ حادثاً يقع في بيتٍ فيبكيه أهل بيت، بل حدثٌ كوني يطوي مرحلة الوجود الأرضي.

يسقط البشر الذين اختلفت ألقابهم، وتفتنى القوى التي تفاوتت مقاديرها. الملك والمملوك، والغني والفقير، والقوي والضعيف، يدخلون جميعاً تحت سلطان النفخة.
وحده الله هو الحي الذي لا يموت، القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم. كل حياةٍ سواه مستعارة، وكل بقاءٍ دونه محدود.
﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾.

حتى في هذا المشهد الكوني يبقى الأمر معلقاً بالمشيئة الإلهية. لا قاعدة تستقل عن إرادته، ولا مخلوق يخرج عن سلطانه.

ثم يمضي زمنٌ لا نعرف مقداره، وتأتي النفخة الأخرى:
﴿ثُمَّ نَفْخَ فِيهِ أُخْرَى﴾.

الصيحة نفسها التي انتهت عندها مرحلة، تبدأ بها مرحلة أخرى. أمرٌ من الله أمات، وأمرٌ منه أحياء. فالذي قبض الأرواح أول مرة لا يعجزه أن يعيدها.

ثم تأتي المفاجأة في حرفٍ واحد:

﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾.

﴿فَإِذَا﴾: بعثٌ مفاجئ لا يحتاج إلى تدرج. قبورٌ تنفتح، وأجسادٌ تنهض، وأجيالٌ منذ آدم إلى آخر إنسان تقف على صعيدٍ واحد.

﴿قِيَامٌ﴾.

انتهى رقاد القبور. قاموا لا باختيارهم، بل استجابةً لأمر الله. الذين كانوا يستثقلون القيام للصلاة يقومون الآن لموقفٍ لا يستطيعون الانصراف منه. والذين ظنوا أن الموت سيغلق القضية وجدوا أن الموت لم يكن إلا باباً إلى الوقوف.

﴿يَنْظُرُونَ﴾.

ينظرون وقد زالت حجب الغيب. يرى المكذب ما كان يسخر منه، ويرى المؤمن ما عاش يرجوه ويخشاه. عيونٌ شاخصة، ونفوسٌ تنتظر ما سيقضى فيها.

في الدنيا كان الإنسان يعمل ولا يرى الجزاء، أما الآن فقد انتهى العمل وبدأ النظر.

ثم تتغير هيئة الأرض:

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾.

أي أرضٍ هذه، وأي إشراق!

لقد كانت أرض الدنيا تشرق بشمسٍ تغيب، ويعقب نورها ظلام. أما أرض الموقف فتشرق بنور ربها على الوجه الذي يليق بجلاله، إشراقاً لا يستمد ضياءه من شمسٍ ولا قمر. إنه نور يليق بمشهد انكشاف الحقائق. في الدنيا عاش الباطل في ظلال التمويه، واختلطت النيات، وزُورت الوقائع، أما هناك فلا زاوية مظلمة يختبي فيها كذب.

ثم:

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾.

يا له من كتاب!

كتابٌ كتبته الأيام بأعمالك، ودوّنته الملائكة، ولم تسقط منه كلمة، ولا نظرة، ولا نيةٌ أثمرت عملاً. صفحاتٌ ربما نسي صاحبها أكثر ما فيها، لكنها حُفظت عند من لا يضل ولا ينسى. وضع الكتاب، فسقطت الرواية التي كتبها الإنسان عن نفسه، وظهرت الرواية التي كتبها عمله. في الدنيا يجيد المرء تفسير أفعاله لصالحه، يبرر، وينتقي من القصة ما يحجي صورته، ويُسقط منها ما يدينه. أما الكتاب فلا يجامل ولا ينسى.

﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾.

يُجاء بالرسل الذين بلغوا أقوامهم، ليشهدوا أنهم أقاموا الحجة وأوصلوا الرسالة. كم عانوا في الدنيا من التكذيب والسخرية والاتهام، وها هم يُجاء بهم في يوم الحق، وقد سقطت أصوات المفترين.

﴿وَالشُّهَدَاءُ﴾.

ويُجاء بالشهود الذين يشهدون بالحق، من الملائكة وغيرهم ممن أذن الله لهم. لا تبقى القضية دعوى بلا بيئة، ولا يستطيع مجرمٌ أن يخو آثار ما صنع.

ثم تأتي خلاصة الحكمة:

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾.

بدأت السورة بالكتاب المنزل بالحق، وختمت بالقضاء بالحق. بين التنزيل والقضاء عاش الإنسان مدة الاختيار. جاء الحق كتاباً في الدنيا، ثم يلقاه حَكماً في الآخرة.

من قبل الحق الأول أمن عند القضاء الآخر، ومن كذب بالكتاب لم يستطع أن يرد الحكم.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

لا تُزاد سيئةٌ لم يفعلوها، ولا تُنقص حسنةٌ عملوها، ولا يحمل بريء وزر مذنب، ولا يضيع حقٌ لصغر صاحبه أو ضعف صوته.

كم من مظلومٍ مات ولم يسمع كلمةً إنصاف! وكم من بريء حمل في الدنيا تهمةً لم يستطع دفعها! وكم من حقٍّ أخفاه النفوذ والمال! كل ذلك يعود إلى ميزانٍ لا تميل به رغبة ولا رهبة. ولذلك لا ينبغي للمظلوم أن يظن أن الصفحة أُغلقت إذا مات ظالمه. قد مات الخصم، لكن القضية لم تمت. إنما انتقلت إلى محكمةٍ لا يستطيع فيها أن يستعمل قوته القديمة. ثم يصل كل إنسان إلى ثمره عمله:

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾
﴿وَوُفِّيَتْ﴾.

أعطيت الجزاء كاملاً غير منقوص. لم يعد العمل أثراً عابراً، بل صار مصيراً يتسلمه صاحبه.
﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾.

لا تضيع نفسٌ في ازدحام الخلائق. مع أن الأولين والآخرين مجموعون، يعرف الله كل فردٍ وعمله وسره. لا تشغله محاسبة واحد عن آخر، ولا تتداخل عنده الملفات. في الدنيا قد يشعر الإنسان أن وجوده صغيرٌ لا يُلاحظ، وأن طاعته الخفية تضيع وسط ضجيج العالم. لكن الله يعلمها. ركعتان في ظلام الليل، وصدقةٌ أخفيتُها، وكلمةٌ خيرٍ قلتها لإنسانٍ كاد ينهار، وصبرٌ لم يعلم بمراراته أحد؛ كلها تُوفى. وكذلك الظلم الخفي: نظرة احتقار، وكلمةٌ مزقت قلباً، وخيانةٌ لم يكتشفها الناس، وسعيٌ في أذى بريء. كلها معلومة.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

الكتاب والشهود ليسا لأن الله يحتاج إليهما ليعلم، تعالى الله عن ذلك؛ بل لإظهار كمال العدل وإقامة الحجة على العباد. فهو أعلم بالفعل، وبنيته، وظرفه، وأثره، وبما كان في القلب حين وقع. قد يتشابه العمالان في الصورة، ويختلفان عند الله اختلافاً بعيداً؛ لأن أحدهما خرج من إخلاصٍ والآخر من رياء. وقد تكون الكلمة نفسها عبادةً من شخص وخطيئةً من آخر، بحسب القصد والسياق.

الله لا يحاسب ظاهر الحركة فقط، بل يعلم الإنسان الذي كان داخلها. ثم يبدأ السوق الذي حملت السورة اسمه:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

﴿وَسِيقَ﴾ •

السوق دفعٌ من الخلف نحو جهةٍ لا يرغب المسوق إليها. لقد كانوا في الدنيا يفرون من ذكر النار، ويهربون من الواعظ، ويسخرون من الإنذار، وها هم اليوم يُساقون إلى الحقيقة التي رفضوا مواجهتها.

سقطت الإرادة المتكبرة. لم يعودوا يختارون الوجهة، بل يدفعون إلى المصير الذي اختاروا أسبابه. ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ •

لم تُبنِ النهاية على انتماء بشري، ولا جنسٍ ولا لون، بل على موقفهم من الله والحق. ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ •

جماعات متتابعة، تجمع كل زمرة رابطةً من روابط الضلال. ربما اجتمعوا في الدنيا على التكذيب، أو زن بعضهم لبعض المعصية، أو تقوى الواحد منهم بكثرة السائرين معه؛ ثم عاد الاجتماع نفسه سوفاً جماعياً إلى النار.

وهنا تظهر خطورة الصحبة. فالإنسان لا يسير وحده دائماً؛ تتشكل اختياراته بمن حوله، ويستمد شجاعته على الخير أو الشر من الجماعة التي ينتمي إليها. من ضحكوا معاً على الحق قد يكون معاً عند المصير.

لا تغتر بكثرة السالكين؛ فالكثرة قد تتحول إلى زمرةٍ مسوقة.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ •

انتهى الطريق عند الأبواب. وطريقٌ طويل من الإنكار والشهوة والكبرياء تحول إلى لحظة وصول. وفتح الأبواب ليس ترحيباً، بل إعلان دخولٍ لا رجوع منه. كأن كل بابٍ يقابل باباً من أبواب المعصية التي دخلوها في الدنيا.

ثم يستقبلهم خزنة جهنم بالسؤال الذي يقطع آخر عذر:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ؟﴾

رسلٌ من البشر، تعرفون لغتهم، وتدركون صدق سيرتهم، ولم يُطلب منكم أن تتبعوا مخلوقاتٍ لا تستطيعون فهمها.

﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾.

لم يدعوكم الرسل إلى أنفسهم، بل تلو عليكم آيات ربكم. حملوا لكم كلام من خلقكم، وربطوا قلوبكم بالمصدر، ولم يجعلوا ذواتهم غاية الرسالة.

﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾.

هذا اليوم لم يأت بلا خبر سابق. وصفته الكتب، وحذرت منه الرسل، وذكرت به الجنائز، وأشار إليه النوم والاستيقاظ، وموت الأرض وحياتها.

فيأتي اعترافهم:

﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾.

كلمة واحدة تهدم كل الأعداء. بلى، جاءتنا الرسل. بلى، سمعنا الآيات. بلى، عرفنا أن هناك لقاء. لكن المعرفة التي لم تُثمر عملاً تحولت إلى حجة عليهم.

﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

حققت بعد اختيارهم وإصرارهم واستكبارهم. لم يُظلموا، بل ساروا حتى استحقوا ما أنذروا به. ثم يصدر الأمر الأخير:

﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾

﴿ادْخُلُوا﴾.

كلمة تنهي كل أمل في العودة. لا توبة الآن، ولا مهلة، ولا كرامة إلى الدنيا.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

هنا تكمن شدة العذاب: ليس ألاماً يمر، بل خلود لا ينقطع عن الكافرين. في الدنيا كان الأمل في النهاية يخفف الشدة، أما هناك فقد انتهى أمل الخروج.

ثم يكشف الوصف مرة أخرى جذر السقوط:

﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

لم يقل فقط: الكافرين؛ بل المتكبرين. لأن الكبر هو الذي منعهم من قول: ربنا الله، ثم الاستقامة. استكبروا أن يسجدوا، وأن يتبعوا رسولاً بشراً، وأن يعترفوا بالخطأ، وأن يقدموا أمر الله على أهوائهم.

طلب المتكبر في الدنيا أن يكون عالياً، فصار مثواه جهنم. وأبى أن يضع جبهته لله، فدخل موضع الدل الأبدي.

ليس ثمة شيء أنجى للقلب من أن يتعلم الانكسار لله قبل ذلك اليوم.
ثم يتغير إيقاع المشهد كله. من السوق القاسي إلى سوقٍ تملؤه الكرامة:
﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾
قال هنا أيضًا:
﴿وَسِيقَ﴾.

لكن شتان بين السوقين. أولئك يدفعون إلى ما يكرهون، وهؤلاء يُحملون في موكب التكريم إلى ما يحبون. ولعل في السوق معنى الإسراع بهم إلى النعيم، وجمعهم في وفود الكرامة.
إن المتقي لا يأتي الجنة فرداً موحشاً، بل في زمرة. مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ومع كل قلب أحبه في الله وسار معه إلى الطاعة.
يا جمال أن تتحول الصحبة الصالحة في الدنيا إلى زمرةٍ عند أبواب الجنة! الذين تواصلوا بالحق، وأيقظ بعضهم بعضاً للصلاة، وثبت بعضهم بعضاً في الفتنة؛ يدخلون معاً.
﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾.

لم تقل: الذين لم يذنبوا؛ فلو كان دخول الجنة لمن لم يقع في خطأ، فمن يدخلها بعد الأنبياء الذين عصمهم الله فيما عصمهم فيه؟
إنهم الذين اتقوا ربهم: إذا زلوا رجعوا، وإذا ذكروا تذكروا، وإذا عصوا لم يجعلوا المعصية وطناً، بل عادوا إلى نداء: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾.
لقد جمع وصفهم بين التقوى والربوبية: ربهم. كانوا يخشونه ويحبونه، ويعرفون أن الذي يحذرونه هو نفسه الذي رباهم ورحمهم وفتح لهم الباب.
﴿إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾.

هذه هي الكلمة التي انتظرتها السورة كلها. كل محطة كانت تصنع الزمرة: الإخلاص يجمع زمرة، والشرك يجمع زمرة؛ القنوت في الليل يصنع زمرة، والقسوة تصنع أخرى؛ التوبة تقود إلى زمرة، والاستكبار يقود إلى غيرها.
ثم:
﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾.

جاءت الواو هنا، تزيد العبارة امتداداً وتهيئ النفس لمشهد الاستقبال الكريم. أبوابٌ مفتوحة أو تُفتح لقدمهم، واستقبال لا يفاجئهم بالرعب، بل يبشرهم بالأمان. كم من بابٍ أغلق في وجوههم في الدنيا لأنهم ثبتوا على الحق! وكم من مكانٍ ضاق بهم لأنهم رفضوا أن يبيعوا إيمانهم! وها هي أبواب الجنة تُفتح لهم؛ فلا إغلاق بعدها. ثم يستقبلهم خزنتها بأربع بشارات في كلمات قليلة:

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾.

انتهى الخوف. سلامٌ من كل ألم، ومن كل عدو، ومن كل مرض، ومن الموت نفسه. لن يفزعهم خبر، ولن يطرق قلوبهم قلق. السلام أول كلام يسمعه عند الأبواب؛ لأن الجنة دار السلام.

ثم:

﴿طَبِّئْ﴾.

ما أبجل هذه الكلمة! طبِّئ في إيمانكم، ونياتكم، وأعمالكم، وتوبتكم. وطهّر كم الله من أدران الذنوب، ومن الحقد والحزن والألم. فلا يدخل الجنة إلا طيب، لأنها دار طيبة أعدها الله للطيبين. قد أوجعتكم مجاهدة النفس في الدنيا، لكنها طهّرتكم. وقد أحرقت الندم بعض قلوبكم، لكنه غسلها. وقد حرّمت شهواتٍ محرمة، لكن ذلك الحرمان كان إعداداً لهذا الدخول.

﴿فَادْخُلُوهَا﴾.

لم تعد الجنة وعداً بعيداً، ففضلوا، فهذا المنزل الذي آمتم به دون أن تروه، وصبرتم من أجله، وبكيتم شوقاً إليه.

ثم البشارة التي تكمل كل نعيم:

﴿خَالِدِينَ﴾.

لا تخافوا أن ينتهي السلام. لا ترتجفوا من زوال الصحة، ولا من رحيل الأحبة، ولا من انقلاب الأحوال. انتهى الفقد، ومات الموت، واستقر النعيم. الجنة ليست جميلةً فقط؛ إنها لا تنتهي. ولو كان نعيمها معرضاً للزوال، لدخل الحزن مع أول لحظة، لكن الخلود يغلق باب الخوف إلى الأبد.

ثم يتكلم أهل الجنة بعد أن رأوا صدق الوعد:

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾

أول ما يخرج منهم:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

لم يقولوا: نجونا بقوتنا، ولا وصلنا لأننا أفضل من الآخرين. رأوا الرحمة أوضح من أعمالهم، فعاد الفضل كله إلى الله.

كان الحمد رفيقهم في الدنيا، فصار كلامهم عند دخول الجنة. من تعلم أن يحمده الله في الضراء والسراء، وجد الحمد على لسانه يوم الفرح الأكبر.

﴿الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾.

كانوا يقرءون وعد الله والجنة غيب. قد يسخر منهم الساعرون، وقد يطول عليهم الطريق، وقد يهجم عليهم الشك من شدة البلاء، لكنهم ثبتوا. والآن صار الوعد مشهداً.

لم تكن سجدة ضائعة، ولا دمعة منسية، ولا ألم تحمله الله بلا نهاية. كل شيء كان يقود إلى هذا الموعد.

إن الله لا يخلف وعده، لكن الطريق بين الوعد وتحقيقه قد يكون طويلاً؛ ليظهر صدق المؤمن، ويتهدب قلبه، ويستعد لعظمة العطاء.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ﴾.

أورثهم أرض الجنة؛ ملكاً مستقراً بعد أن انقضت دار الابتلاء. والوارث يتسلم ما لم يصنعه وحده؛ ففي الكلمة إشعاراً بالفضل والعطاء.

﴿نَتَّبِعُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾.

في الدنيا كان الإنسان محدود المكان: تمنعه الحدود والفقر والمرض والضعف. أما في الجنة فتتسع المشيئة داخل النعم، ولا يزاحم أحدٌ أحداً، ولا يحتاج الإنسان أن يسلب غيره مكاناً ليجد مكانه. ثم يقولون:

﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

العمل انتهى، وجاء الأجر. كانت الطاعة ثقيلةً أحياناً، والصبر مرّاً، ومقاومة الشهوة مؤلمة، لكنهم حين رأوا الجزاء علموا أن كل ما بذلوه كان قليلاً.

يا ليت القلب يرى عند ثقل الطاعة طرماً من هذا المشهد! حين تستثقل صلاة الفجر، أو نتعب من الصبر، أو يؤلمك ترك الحرام؛ تذكر أن أهل الجنة يقولون: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

ولم يقولوا: نعم أجر المتمنين. فالجنة لا تُنال بالأمانى المجردة، بل بإيمانٍ يعمل، وتوبةٍ تغير، ورحمةٍ من الله تُدارك النقص كله.

ثم تحتم السورة بمشهدٍ كوني من الطواف والتسبيح والحمد:
﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾

بعد سوق الخلائق إلى مصيرهم، ترتفع العين إلى الملائكة:
﴿حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾.

محيطين به، قائمين في مقام العبودية والجلال، على الوجه الذي أخبر الله به، من غير أن نكيّف شيئاً من الغيب أو نشبه صفات الخالق بصفات خلقه.
إنه مشهد نظام كامل بعد أن انتهت الفوضى الظاهرة في الدنيا. الملائكة في مقاماتهم، والخلق في مصائرهم، والعدل قد نفذ، والمملك ظاهر لله وحده.
﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

جمعوا بين التسبيح والحمد:
التسبيح تنزيهٌ لله عن كل نقص. والحمد إثباتٌ لكل كمال.
ينزهونه عن الظلم في قضائه، ويحمدونه على عدله ورحمته. فدخل أهل النار عدل، ونجاة أهل الجنة فضل ورحمة، ولا يخرج شيء في ذلك اليوم عن الحكمة.
﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾.

انتهت كل الخصومات التي وعدت السورة أنها ستُعرض عند الله. صدر الحكم، ووفيت النفوس، واستقر كل فريق في داره.
ثم تأتي آخر كلمات السورة:
﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

بدأت السورة بـ:
﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

وانتهت بـ:
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

بين التنزيل والحمد جرت قصة الإنسان كلها. أنزل الله الكتاب ليهدي العالمين، ثم حكم بين العالمين، ثم انتهى الوجود إلى حمد رب العالمين.

لا يبقى في نهاية التاريخ اعتراض، ولا شبهة، ولا كذبة؛ بل تظهر الحكمة كاملة، فيعلم الخلق أن الله لم يظلم، ولم يخلف وعداً، ولم يضع شيئاً في غير موضعه. ويُقال: الحمد لله.

الحمد لله على الكتاب الذي أنذر قبل أن يأتي اليوم. والحمد لله على باب التوبة الذي فُتح للمُسرفين. والحمد لله على العدل الذي أعاد الحقوق. والحمد لله على الرحمة التي نَجَّت المتقين. والحمد لله الذي بدأ الخلق بالحق، وقضى بينهم بالحق، وختم المصير بالحمد.

الإشراقَةُ الختامية للسورة

سورة الزمر رحلة فرزٍ طويلة.

تبدأ بقلبك قبل أن تنتهي بحسبك. تسألك أولاً: لمن تُخلص الدين؟ ثم تترك في النهاية إلى أي زمرة سيقودك ما أخلصت له.

فالزمر لا تتكون عند أبواب الجنة والنار، بل تتكون الآن:

حين تختار الصدق، تنضم إلى زمرة. وحين تقوم في الليل ساجداً، تقترب من زمرة. وحين تسمع أحسن الحديث فيقشعر جلدك ثم يلين قلبك، تتشكل وجهتك. وحين ترفض الطاغوت وتنبئ إلى الله، يتحدد موكبك. وحين تسرف ثم تسمع: ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾ فتعود، تنتقل من طريقٍ إلى طريق. وحين تستكبر وتؤجل وتقول: سأرجع غداً، فأنت أيضاً تختار زمرة.

إن السورة لا تسألك: مع من تقف في الدنيا فقط؟ بل: مع من تريد أن تُساق في الآخرة؟ وهنا تبدي مفارقتها الكبرى:

أهل النار عرفوا عند الأبواب أن الرسل صدقوا، لكن معرفتهم جاءت بعد انتهاء زمن الاختيار. وأهل الجنة قالوا عند الأبواب: ﴿صَدَقْنَا وَعَدَهُ﴾؛ لأنهم صدقوا بالوعد قبل أن يروه.

الإيمان أن تصدق الآن، حين لا ترى إلا الكلمات. والفوز أن ترى غداً ما صدقته اليوم.

في ختام السورة	في مطلع السورة
﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾	﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ بِالْحَقِّ﴾
ظهور عاقبة الإخلاص والشرك	أمرٌ بالإخلاص لله
سوق المشركين إلى جهنم	تحذيرٌ من اتخاذ الأولياء من دونه
اعتراف المتأخرين بعد فواتها	دعوةٌ إلى الإنابة
قيام الخلائق في ذلك اليوم	خوفٌ من اليوم العظيم
فتح أبواب الجنة للمتقين	وعدٌ بغرف الجنة
صدق الله عباده وعده	﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

سؤال الزمر الأخير

إذا نُفِخَ في الصور الآن، فأَيُّ شيءٍ في حياتك ستتمنى لو أصلحته؟
 أي ذنبٍ ستندم لأنك قلت عنه: ما زال الوقت طويلاً؟ وأي حقٍّ ستتمنى لو رددته؟ وأي إنسانٍ صالح ستتمنى لو ثبتَّ معه؟ وأي سجدةٍ ستعرف حينئذٍ أنها كانت أثنى من الدنيا؟ وأي زمرة تصنع أعمالك لك في هذه اللحظة؟

لا تنتظر حتى تقول النفس:

﴿يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾.

فما زال الكتاب مفتوحاً، وما زال القلب ينبض، وما زال النداء قائماً:

﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾.

فأخلص، وأنب، وأسلم، واتبع أحسن ما أنزل إليك. وضع جبهتك لله في الدنيا اختياراً، لتقوم يوم القيامة آمناً. واختر صحبتك وطريقك وأعمالك على ضوء الموكب الذي تريد أن تكون فيه.
 فإن انتهى الطريق بك إلى أبواب الجنة، وسمعت:

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾،

هان عندها كل ما صبرت عليه، وانكشف سر كل منع وبلاء، وعلمت أن الله لم يضيع دمة ولا سجدة ولا خطوة.

وهناك، حين تصمت الحشرات، وتطمئن القلوب، وتوقّ النفوس، ويحيط الملائكة بالعرش مسبحين؛ لن يبقى أصدق ولا أجمل من الكلمة التي خُتمت بها السورة:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

وبهذا اكتملت رحلتنا التدرية في سورة الزمر كاملةً، من الآية الأولى إلى الآية الخامسة والسبعين.